

الدكتور شوقي ضيف

الطُّولَةُ في الشعر العربي

الطبعة الثانية



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الموضوعات التي طالما تغنى بها شعراؤنا على مر الزمن بطولة الآباء والأجداد في معاركهم مع الأعداء ، وما سقط من شررها على ألسنتهم وألسنة الشعراء . وقد عدت أدراجي مصعداً في الزمن حتى العصر الجاهلي ، فرأيت الروافد التي صبّت في نهر بطولتنا العظيم ، وهي روافد متعددة منها الحربي الذي يقوم على الاستبسال في القتال ، ومنها النفسي الذي يقوم على احتمال الشدائد والحلم والحزم والأنفة والعزة ، ومنها الخلق الذي يقوم على صيانة الشرف وعلى الكرم والوفاء بالعهود وحماية الجار . وبذلك تعانقت من قديم بطولة السيف مع بطولة النفس والخلق والطموح إلى المثل الرفيعة من مثل الإباء والأنفة والشعور بالعزة والكرامة والنجدة وإغاثة الملهوفين وإطعام الجائعين .

ثم كان الإسلام فأذكى هذه البطولة بمعانيها الثلاثة ، وأمدّها بروحانية مضطربة ، جعلها تزداد تلظياً واشتعالاً . وخرج العرب من جزيرتهم يحملون في يديهم مشاعل دينهم الحنيف ، وفي اليد الثانية سيوفهم ومن تحته خيولهم تصهل ملوحة بأعرافها ، وعزيمتهم تطوى لهم المسافات المغرقة في المبعد طيماً ، يريدون أن ينشروا الإسلام في أطباق الأرض ، مرخصين مهجهم وأرواحهم في سبيل نشره . وتقتسم جموعهم العالم ،

فقسم يتجه تلقاء فارس ، وقسم يتجه تلقاء الشام ، ثم يتجه قسم تلقاء مصر ، وتندحر جيوش الروم والفرس . ويصبح العالم ملك أيديهم يثبتون فيه ويمحون . ويتبعون الروم إلى البحر ، ويصبح فرسان الصحراء فرسان الدأماء ، ويمحون أسطولهم البحر المتوسط وترتعد منه فرائص الأعداء .

ويمتد السيل الكاسح شرقاً حتى أواسط الهند وأبواب الصين ، ويمتد غرباً حتى مشارف البرانس ، وتدين للعرب الرقاب في المشارق والمغارب ، تدين لجهادهم وبسالتهم وبطولاتهم الخارقة . ويحتفى الروم منهم بجائز آسيا الصغرى وقلوبهم تمتلئ بالفزع والرعب ، وأبطال العرب من مثل سيف الدولة يجرعونهم الغصص ويفتكون بهم في الحروب فتكاً ذريعاً . ويتزل الصليبيون في الشام والبوصل ، وتتعبهم أمداد لا تكاد تحصى ، ويظنون ظناً فائلاً أنهم سيقيمون إلى الأبد ، ويخيب ظنهم وفألهم إذ ينهض لهم نور الدين وصلاح الدين وبيرس وأندادهم من الأبطال العظام فيحطمونهم حطماً ، ويستحيل الشام بركاً من دمائهم ، وتعود بقاياهم محملة بالخزي والعار . وسرعان ما يتبعهم التار مهزومين مدحورين .

ويستقبل العرب العصر الحديث والدولة العثمانية توشك أن تنهار فتستصرخهم وينجدونها في بعض حروبها مع الدول البلقانية وفي كريت . وتقتسم الدول الاستعمارية ديارنا ، وتحتدم في كل دار معركة من معارك التحرير ، يخوض النضال فيها الشعوب وفي مقدمتهم أبطال يزلزون المستعمرين زلزالاً شديداً ، ومايزالون يُسْزِلُون بهم ضربات قاصمة

حتى يستسلموا خائعين ، وتسترد ديارنا حرياتها واستقلالها . غير أن
خبثهم أدامهم إلى أن يُسبَقوا من ورائهم إسرائيل لتكون لهم نقطة ارتكاز ،
وحتى تكون إسفيناً يفصل بين البلاد العربية فلا تتم لها وحدة ، وليحطموا
عن طريقها قدراتها الاقتصادية كلما رأوها تنهض على قدميها .

ولن يفت في عضدنا ما حدث في حرب يونيو ، ولن يفقدنا ثقتنا
بأنفسنا ، بل إنه سيشد من عزائمنا لنسترد كرامتنا وشرفنا الحربي ،
ولننقذ بقعة غالية مقدسة من وطننا اغتصبها ظلماً وعدواناً عصابات
باغية . ومن أكبر الدلائل على أن هذا الأمل المعقود سيتحقق عن
قريب انبعاث الفدائيين الفلسطينيين للأخذ بالثأر ، ثار المدبوحين
في دير ياسين وكفر قاسم ، والمحبوسين بالمئات في سجون التعذيب ،
واللاجئين المشردين الذين نُهبَت بصورة وحشية أراضيهم وبيوتهم وثمارهم
وكرومهم ، ولم يبق لهم سوى اعتصار الصخور . ولا بد للذئاب من أن
تنهزم ، ولا بد لليوث من أن تنتصر ، ولا بد للظلام الداجي من أن ينحسر ،
ولا بد للصباح المضيء من أن ينبثق وتعم أنواره .

القاهرة في أول يونيو سنة ١٩٧٠ م .

شوقي ضيف

معنى البطولة

البطولة فى اللغة الغلبة على الأقران ، وهى غلبة يرتفع بها البطل عن حوله من الناس العاديين ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً ، وقديماً كان البطل فى القبيلة وفى عهود الحياة الأولى للأُمم يعد شخصاً مقدساً ، بل لقد كانوا يظنونهم أحياناً من سلالة الآلهة ، وكأنه هبة تهبها لهم ، حتى لا يقعوا فريسة لمن سواهم ، وحتى لا يسقطوا فى مهاوى لا قرار لها من الاضمحلال والفناء . وعلى نحو ما كانوا يقفون أمام خوارق الطبيعة مشدوهين حائرين شاعرين كأنما تحوطها هالة سحرية ، كانوا يقفون أمام البطل مذهولين كأنما يستر فى طواياه قوى خفية ، وهى قوى مكنت له فى رأيهم من الإتيان بالخوارق فى البسالة وقتال أعدائهم ، وهى خوارق لا تقف عند نجاته من القتل بل تمتد إلى نجاتهم معه نجاة جعلتهم يشعرون بقوة أنه هو الذى يهبهم الحياة . ومن أجل ذلك عبده أحياناً ، وخاصة فى عهود الإنسانية الأولى ، حتى ليطلق على بعض فتراتها فترة عبادة الأبطال ، حين كانوا يتراءون لمن حولهم رموزاً لقوى خفية غيبية مجهولة ، أو بعبارة أخرى رموزاً لأشياء إلهية مقدسة ، بل كأنما الآلهة هى التى أنجبتهم لحماية من حولهم بما يأتون من معجزات القوة والشجاعة ، وهى معجزات دفعت الناس إلى عبادتهم أحياناً كأنهم حقاً آلهة بيدهم حياتهم وكل ما يحفظها عليهم من أسباب الرزق والبقاء .

ويتضح هذا العصر في تاريخ اليونان القديم ، حين مضت تبشير هذا التاريخ تتبلج في أفق حياتهم المظلم الكثيف منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد حتى القرن التاسع . وفي هذا الزمن السحيق كان يحكمهم ملوك آمنوا بأنهم من سلالة الآلهة ، لما امتازوا به من بطولة نادرة ومن بأس عات شديد . وقد نسجوا حولهم كثيراً من الأساطير المغرقة في الخيال ، غير فارقين بينهم وبين آلهتهم في صور الحياة والأحداث وما ينزلونه على الناس من صواعق الموت الذي لا يبقى ولا يذر ، بل لقد كانوا يخلطون آلهتهم بهم اختلاطاً يجعل لهم نفس النوازع البشرية وكأنما طبيعتهم هي نفس طبيعتهم الإنسانية بكل عواطفها في الحب وغير الحب وبكل أهوائها وضروب سلوكها وكل أحقادها وصنوف خصوماتها . وبذلك وضعوا الآلهة والأبطال في مرتبة واحدة ، سواء في السلم أو في الحرب والقتال ، إذ كانوا يقتتلون معهم ، وتارة يمدونهم بالنصر ، وتارة يتخلّسون عنهم فيذوقون الموت أو يذوقون الذل والهوان .

وأخذت تتكون في هذه الفترة المتعمقة في القدم أساطير كثيرة في مخيلة اليونان عن أبطالهم وآلهتهم ، لم يلبثوا أن رتلوا فيها أناشيد شعرية وأخذت هذه الأناشيد - كما أخذت هذه الأساطير - تتضخم ، ولا نصل إلى القرن العاشر قبل الميلاد حتى نجد هوميروس يسوى منها قصيدته القصصيتين الطويلتين « الإلياذة » و « الأوديسا » ونكتفي بالوقوف قليلاً عند أولاهما لتستبين لنا شخصية هذا الشعر القصصي القديم ، وكيف كان يقوم على تصوير مغامرات بعض الأبطال اليونانيين وما يتصل بتلك المغامرات من أحداث الحروب ومن الأساطير .

والقصيدة تتألف من نحو خمسة عشر ألفاً من الأبيات ، وهي تصف أحداث الأسابيع الأخيرة من حرب اليونان مع أهل طروادة في آسيا الصغرى لمدة عشر سنوات كانت الحرب فيها سجالات بين الفريقين ، وتقول أساطيرهم إن بارس بن بريام ملك طروادة حكم للإلهة « أفروديت » بأنها أكثر جمالا وفتنة من زميلتها « هيرا » و« أثينا » مما جعلهما تتميزان غيظاً منه ، في حين رأت أفروديت أن تجزيه جزاء حسناً فوعده الاقتران بهيلين الفاتنة زوجة منيلاوس ملك إسبرطة . وأبحر بارس إلى اليونان ونزل ضيفاً على الملك ، ولم يلبث أن أغرى زوجته بالفرار معه إلى بلاده ، وفرت راضية . وبدأت محنة الحرب ، إذ استصرخ الملك أخاه أجاممنون وأبطال اليونان من أمثال أخيل ، فلبوه غاضبين ، ولبسته جموع كثيرة عبرت البحر في مقدمتها قائدها أجاممنون يحمل لواء قومه . وما إن علم الطرواديون حتى استنجدوا بأمراء آسيا الصغرى وجاءوهم من كل حذب ينسلون ، وأجمع رأيهم على أن يكون قائدهم ابن بريام الأكبر « هكتور » البطل المغوار زوج أندروماك . والتقت الفئتان وانقسمت الآلهة بين المعسكرين المتحاربين ، وكان طبيعياً أن تنصر اليونان هيرا وأثينا ، وأن تنصر الطرواديين أفروديت ، ووقف زيس كبير الآلهة على الحياد . وظلت الحرب مشتعلة نحو عشر سنوات كما أسلفنا ، ثم يحدث خلاف بين أجاممنون وأخيل . ومن هنا تبدأ قصة الإلياذة ، إذ اتخذ هوميروس من هذا الخلاف الأصل الذي تفرعت عنه أحداث الأسابيع الأخيرة ، فقد غضب أخيل من أجاممنون وامتلأ قلبه غيظاً وموجعة لاغتصابه فتاته « بريسيس » التي سباه في

بعض معاركه ، وقفل راجعاً إلى سفينته ، واعتزل الحرب وقومه ، وكانت أمه ثيتس من عرائس البحر ، فجاءته تسأله ما الخبر ، فروى لها صنيع أجا ممنون معه ، وطلب إليها أن تصب عليه غضبها ، وأن تستعين عليه بالآلهة ، وتجأ إلى زيس . ويحتم القتال بين اليونان والطوراديين وينكل بهم الآخرون ، ويقتلون نفرًا من أبطالهم العظام ، يقتلهم هكتور ، وفي مقدمتهم باتروكلوس صديق أخيل وصنوفسه ويفزع اليونانيون إلى أخيل ، ويرد إليه أجا ممنون فتاته ، وتأتيه أمه بدرع نسجته له بعض الآلهة ، ويتزل حومة القتال ، ويلتقي بهكتور ، فتدور عليه الدوائر ، بينما زوجته وأبواه يعولان بالنشيج والدموع الغزار . ويسترد الطوراديون جثة بطلهم لقاء فدية كبيرة لأخيل ، ويودعونه بجنازة رهيبة يحف بها النحيب والعويل . وبذلك تنهى الإلياذة .

وواضح أن البطولة في الإلياذة بطولة أسطورية تتصل بأبطال وآلهة أسطوريين ، وليس بيدنا عن العصور العربية القديمة شيء من هذه البطولة التي تتشابه فيها الوشائج بين الأبطال والآلهة ، وكأنما قد اجتاز العرب في أقدم عصورهم التاريخية — وأقصد العصر الجاهلي — هذا الدور الفطري ، الذي يشترك فيه الأبطال والآلهة في أحداث الحروب . ولعل هذا هو السبب الحقيقي في أن العرب لم ينظموا القصائد القصصية الطويلة ، وبعبارة أخرى لم يعرفوا الشعر القصصي الذي تطول قصائده طولاً مسرفاً ويشيع فيها التسلسل القصصي الدقيق ، وكأننا بإزاء قصة كاملة غير أنها نُظمت شعراً . ولا بد أن نشير هنا إلى أن اليونان سجلوا البطولة في صورة شعرية أخرى هي صورة الشعر التمثيلي الذي

يكتب للمسرح والذي تصور فيه مآسى الأبطال . وقد درس أرسطو المأساة دراسة نقدية عميقة ملاحظاً أنه لكي تحدث مأساة البطل لابد أن يكون به ضرب من ضروب النقص يهيئه لمأساته ، لأنها لا تهبط عليه من السماء بل تنزل به نزولاً طبيعياً ، وكأنها مصيره الذي يفضي إلى دماره . ولم يعرف العرب هذا النوع من البطولة المسرحية ، لسبب طبيعي ، هو أنهم لم يعرفوا قديماً المسرح وما يعتمد عليه من حوار بين الممثلين وقصة تتلاحق فيها الحركة والمشاهد والمناظر المختلفة.

ومعنى ذلك أن العرب لم يعرفوا قديماً البطولة المسرحية ولا البطولة الأسطورية ، وإنما عرفوا البطولة الواقعية ، بطولة يرتفع فيها صاحبها عن الأشخاص العاديين من حوله بقوته وبسالته وإقدامه وجراته وتغلبه على أقرانه ، وهو منهم ، من ذات أنفسهم لا من سلالة الآلهة ، وأنصاف الآلهة ، بشرٌ سوى لا يعلو على الحدود البشرية الإنسانية ، وبطولته لذلك تتفجر من وجوده الإنساني البشرى لا من ينابيع إلهية أو سحرية غيبية ، بطولة إنسانية لا تتشح بقوى خفية ، بل تستمد من الواقع وحقائقه لا من الخيال وخوارقه ، وهي بطولة تستند على قوة الجسد والبأس الشديد ، بأساً يدفع غائلة الوحش والقبائل المجاورة بكل ما استطاع البطل العربي القديم في صحرائه من اتخاذ عدة له في القتال ، عدة ليس فيها ما صنعتها الآلهة له كي تعينه على النصر ، بل كلها من صنع الإنسان ، سواء الدرع أو السيف أو الرمح أو القوس والسهم . وبالمثل الخيل التي يصول ويحول عليها الفرسان وهي تصل من تحتهم ليست خيلاً من السماء ، بل هي خيل من الواقع ، تربت في

أحضان الصحراء ، بل تربت في أحضان الأبطال ، حتى ليحس كل منهم أن فرسه بضعة من نفسه ، بل لكأنها جزء لا يتجزأ من نسبه في آبائه وقبيلته أو عشيرته فهو فارس الشهباء أو البيضاء أو الورد ، ولعلمهم لذلك اهتموا بأنسابها اهتمامهم بأنسابهم دلالة على الأصالة والنفاسة ، وكأنها فصلت من ذات نفوسهم وقلوبهم وتاريخهم وحياتهم . ولم يقف العرب قديماً ببطولتهم عند جانبها الحربي ، فقد اتسعوا بمعناها حتى شملت البطولة النفسية ، وهي بطولة أدت إلى كثير من الشئائل الرفيعة . من ذلك الحلم وهو في واقعه تغلب على ثورة الغضب ، أو قل هو تغلب بطولي على الترق والطيش . ومن ذلك الصبر على الشدائد ، وهو بدوره تغلب على الهلع والفرع إزاء المصاعب واقتحام المعاطب ، وما قد يتزل من الخطوب والنوائب ، والبطل لذلك لا يشكو ، بل يتجرع الغصص في صمت محتملاً إياها أقوى احتمال . ومن ذلك الحزم وهو بدوره تغلب على التردد في الرأي قبل أن تفلت فرصته من يد الشخص ، فهو يسلك الوجه الذي يجب أن يسلك ، لا يفوته تديره في التو والساعة . ومن ذلك الكرامة ، وهي بدورها تغلب على صغار النفس وشهواتها الوضيعة وانحراف عن الغايات الدنيا إلى الغايات السامية العليا في إباء وشمم وأنفة وعزة ، وأي ضيم وأي هوان دونهما الموت الزؤام .

وتمتزج هذه البطولة النفسية وأختها الحربية عند القدماء ببطولة خلقية ، أسبغت عليهم القوة إزاء غرائزهم ، حتى ليخيل إلينا كأن العربي في صحرائه وجاهليته مع ما أوتي من الشجاعة التي تتيح له تحقيق مآربه كان يعمل جاهداً على قهر تلك الغرائز ، بل لكأنما

كان يجد لذته في قهرها ، فإذا هو يعفّ عفة عن كل متاع مادي ،
حتى في الحرب وعند المغنم وجمع الأسلاب . ومن هنا نحس أنه كان
يسعى في قوة إلى طائفة من المثل الخلقية العليا ، ولم يكن مثّل يعنيه
كمثل الشرف ، فهو يحافظ على حقوقه وهي حقوق تمتد في بعض جوانبها ،
فتصبح واجبات اجتماعية وبطولية ، وخاصة حين تتعرض قبيلته لعدوان
من قبيلة مجاورة ، وإنه لينقلب ، حين تسبى بعض نساء عشيرته ،
فظناً معتدياً لا يشفيه من أعدائه إلا سفك الدماء ، فكل شيء إلا عار
سباء النساء ، وكل شيء إلا انتهاك العرض وحرماته ، إذ يصبح
أسداً كاسراً كل لذته أقراس الأعداء الذين امتهنوا حيماء وداسوا
مدارج عزه وشرفه . ومثل أعلى رفيع آخر آتى ثماراً كثيرة ، هو مثل الكرم
الذي سند بطولة الجاهليين ودعمها دعماً ، فقد نبت جذوره في أعماق
التغلب على شح النفس ، ولم تلبث غصونه أن ارتفعت وانتشرت لا في
سواء العشيرة أو القبيلة وحدها ، بل في سواء الجزيرة كلها ، فإذا
الكريم يشبع الجائع من قومه ، ويرى الضيف أي ضيف حتى لو كان
من نخصومه . وتلتقي مع شجرة الكرم فروع وغصون كثيرة ، إذ يفرّج
البطل الكريم غمة كل مكروب . وإذا كان قد حمى الجائعين
من كربة الجوع فأولى أن يحميهم من كدّرب التشرد في متاهات الصحراء
حتى لو نبذتهم قبائلهم لبعض الحنایات ، وخاصة حين يلجأون
إليه مستجيرين فإنه يلحقهم بعشيرته ، وتصبح لهم نفس حقوق أبنائها ، عهد
لا بد أن يوفوا به مهما ضحوا في سبيله . وكانوا يحلون الوفاء والحفاظ
على العهد إجلالاً لا حدود له .

وعلى هذا النحو عانقت البطولة الحربية عند العرب قبل ظهور الإسلام بطولة خلقية اجتماعية : جعلت أبطالهم ومن ورأهم عشائريهم وقبائلهم يسعون إلى تحقيق طائفة من المثل العليا ، ويلحون في السعى . حتى استقامت لهم شمائلهم ومناقبهم . وبالمثل عانقت بطولتهم الحربية بطولة نفسية جعلتهم يسعون إلى تحقيق طائفة أخرى من تلك المناقب وكانوا يتصايحون بها صياحاً عالياً ، ويتخلل هذا الصياح هتافهم الذى لا ينقطع بالبسالة والشجاعة ومنازلة الأقران وإزهاق نفوسهم وسفك دماهم . ولكثير من أبطال الجاهلية دواوين تمتلئ بضجيجهم وبيان ما أنزلوا بأعدائهم من الموت الساحق الذى لا يبقى ولا يذر ، كما تمتلئ بمثلهم النفسية والخلقية التى كانوا يحرسون عليها حرصهم على أرواحهم مزدربين الصغائر والشهوات في سبيل مطامح النفس الكريمة التى تعرض عن النقائص وتمتنع عليها ، وسبيل الحقوق والواجبات القبلية ، وما يتطلبه الشرف والمجد العريض من خصال نبيلة . ولم يتغن الأبطال وحدهم بهذه البطولة وشعبها الثلاث : الحربية والنفسية والخلقية الاجتماعية : بل تغنى بها ومضى يعظمها ويمجدها الشعراء في كل حي وكل عشيرة وكل فج من فجاج البوادي : متخذين من مدبجهم لأبطالهم أداة لهذا التمجيد والتعظيم ، وصنعوا نفس الصنيع بمراثيمهم ، إذ حولوها ما تم لتأيين أبطالهم وبيان المعاني والمثل الرفيعة التى تجسدت فيهم ، وكأنما يريدون أن يخلدوهم ويحفظوا في ذاكرة معاصريهم والأجيال التالية أن شخصهم المادية إن كانت قد بليت وفنيت فشخصهم المنعوية حية باقية إلى أبد الآبدين .

في الجاهلية

تحوّلت الجزيرة العربية في الجاهلية إلى ما يشبه ساحة حربية كبيرة تقتل فيها العشائر والقبائل ، وفي كل جانب يتصايح الأبطال وتُسهر السيوف وتلمع الرماح وتصوب النبال وتدق الأعناق وتسيل الدماء ، والضباع والذئاب والنسور والعقبان تتخاطف الأشلاء . وقد يرتفع صوت ضئيل نحيل كصوت زهير بن أبي سلمى بالدعوة إلى السلام وأن تضع الحرب أوزارها ، ولا سميع ولا مجيب . فقد أصبح الطعن والقتال والحرب والتزال فريضة الحياة ، وكل يكشر عن ألماحه بمشقة حُسامه ، يقاتل حتى يُقتل تحت ظلال السيوف قتلة شريفة ، حتى ليعد عندهم سبة ما بعدها سبة أن يموت الإنسان على فراشه حتف أنفه ، شأن الجبناء الذين ينكلون عن الحرب ، وما الجبن بمنجيهم من الموت ، فالموت غاية كل إنسان ، وإن استقبله برباطة جأش خير من استدباره ، بل إن خوض غماره ليمدّ في أسباب الحياة ، إذ يتدرب المقدام على الطعان حتى إذا حانت لحظة التزال حمى نفسه ، أما الجبان فيموت رعباً قبل أن يموت طعناً بالسنان ، وهل يمكن أن يكون للجبان في هذا المجتمع الحربي مكان يطمئن إليه ؟ إنه أول من يقتل وأول من ترتعد فرائصه ويهوى صريعاً ، أما الشجاع الجريء في حصن من شجاعته وفي حماية من جرأته ، يستعذب الموت ويسترخص القتل ، وكأنه

يسرع الخطو إليه ، يحدوه إقدام لا يعرف المبالاة ولا الإحجام ،
إنما يعرف شق الجباه وطعن النحور وإزهاق النفوس .

وحقاً كانوا عشائر وقبائل راحلة وراء مساقط الغيث ترعى الأنعام
والأغنام ، ولكن كأن هذه الرحلات لا تمثل صميم حياتهم ، إنما تمثلها
السيوف المشرعة والسهام المفوكة ، وكأنهم كتاب مجهزة ، تقتحم الوقعة
تلو الوقعة ، وفي كل وقعة تجمع الأشلاء وتبكي الصرعى من الأبطال
الشجعان ، ولاتلبث أن تعود إلى القتال أشد حفيظة ووجداً ، تريد
أن تبحث أعداءها من الأرض اجتثاً وتستأصلهم استئصالاً حتى لا تبقى
لهم بقية . وقانون أقاموه بينهم ألا يستصرخ أحد من أبناء العشيرة قومه
إلا طاروا إليه بجموعهم دون أناة أو سؤال له عن سبب الصراخ والاستغاثة
وهو قانون النجدة ، كل يبادر لنجدته وكل يحمل سلاحه ، بل كل
يستل سيفه يريد أن يغمده في صدور أعدائه . ووثق هذا القانون
عندهم وأحكمه قانون كان يقوم عندهم في الحرب مقام المركز من الدائرة ،
فعليه تقوم ومنه تصدر ، وإليه ترد ، وهو قانون الأخذ بالثأر ، فمن
قتل من عشيرة شخصاً من عشيرة أخرى تبعه هو وعشيرته ثأره ، فلا يُطَلُّ
دمه ، أو بعبارة أخرى لا يذهب دمه هدراً ، بل لابد أن يثار له قومه
ولابد أن تسفك من أجله الدماء . ويدخل الطرفان المتقابلان في معارك
لا تنهى ، إذ لا يمكن منها الخلاص ، فدائماً مقتولون ، ودائماً معارك
طاحنة ، لا يكادون يفرغون من إحداها حتى تنشب معركة جديدة
أكثر فتكاً وأشد هولا ، وكأنما أصبح سفك الدماء سنة من سننهم ،
بل وكأنما أصبح غريزة من غرائزهم ، فهم لا يصبرون عليه ، وهم

دائماً عطاش لرؤيته ، وخاصة إذا كان إدراكاً لثأر ، فإنهم يحرمون على أنفسهم كل متاع للحياة ، فلا يقربون الخمر ولا النساء ولا يصلحون أى شأن من شئونهم فى الثياب أو الزينة ، بل يفرغون للحفيظة ولا تزال صدورهم تغلى بالموجدة ، ومن حولهم نساء العشيرة يكون القتل ويستثيرون ببطولته ومناقبه رجالها حتى يغسلوا عنهم عار قتله بما يسفحون من دماء قاتله ودماء قومه .

الثأر ، الثأر ، كلمة كانت تدوى فى كل حى وفى كل عشيرة ، فدائماً دم مسفوح ، ودائماً شر معقود ، ودائماً رماح تطعن فى القلوب ودائماً سيوف تحز فى الرؤوس ، ودائماً حرب وطعان ، وكأن أوقات السلم إن هى إلا لحظات لالتقاط الأنفاس ، ثم تليها كوارث الحرب وما يتهاوى فيها من الشجعان والأبطال ، حتى ليصبح المقتول فخرأ لقبيلته ، مثله مثل القاتل ، إذ كم من عدوان رده عن قبيلته ، وكم من أعداء شارك قبيلته فى تمزيق جموعهم ، وكم ظل يذود عنها ويحامي ويقاوم حتى قتل ، كما يقتل الشجعان الذين يهبون أنفسهم راضين لقبائلهم . ومايزالون يأخذون لها بأثارها وأوتارها ، منزلين بخصومها أوتاراً وأثاراً مماثلة . وبذلك كانت حياة الجاهليين حلقات مفرغة من أوتار وأثار لا تنهى ، فكلما وتر فرد من عشيرة شخصاً من عشيرة أخرى وسفك دمه سارعت عشيرته إلى أخذ وتره وثأره ، فالعشيرة دائماً واثرة موتورة ، وصور ذلك دريد بن الصبمة أحد فرسان الجاهلية وأبطالها قائلاً :

وإنا للحم السيف غير نكيرة . ونلحمه حيناً وليس بندى نكِر

يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتَرِينَ فَيُشْتَفَى بِنَا إِنْ أُصِيبْنَا أَوْ نُغِيرَ عَلَى وَتَرٍ
 قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرٍ

وواضح أنه يرسم حياته وحياة عشيرته ، فهم دائماً لحم وطعام لسيوف
 أعدائهم ، وبالمثل أعداؤهم دائماً لحم وطعام لسيوفهم في غير شك ولا
 إنكار ، فتلك حياتهم ، لا يزال الفارس منهم يقاتل حتى يحاط به ،
 وحينئذ لا يلتقي السلاح ولا يستسلم ، بل يقاتل حتى يقتله الأعداء ،
 وحتى يشفوا غيظهم بدمائه المسفوحة في بعض معاركهم أو غاراتهم ،
 وكأنما أوقات دهرهم مقسومة قسمين : قسم لانتصارهم على أعدائهم
 وقسم لانتصار أعدائهم عليهم ، فداًئماً دق بالرماح في النحور ،
 وداًئماً طعن بالسيوف في الصدور ، وكأنما تحول الطعن والدق إلى سجية
 طبيعية من سجاياهم ، بل لقد أصبحت غريزة جوهرية من غرائزهم .

ولعلمهم لم يكونوا يشعرون بيدَيْن إزاء آبائهم وأجدادهم كما كانوا
 يشعرون إزاء الأخذ بأثأرهم وتيراتهم ، فكان الابن إذا قتل أبوه أوجده
 وهو في المهد أو وهو صبي لم يدرك ارتسم الحقد والضغن على قاتله
 في سويداء قلبه ، حتى إذا شب عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب عمد
 إلى تحريم كل زينة ومتاع على نفسه : فلا يتعطر ولا يشرب خمرا ،
 لئلا ينسى ثأره ، بل لكي يعيش له ولا يشغله سواه ، وإنه ليحس كأنه
 وجد ليدرك ثأر أبيه أوجده ، ولينتقم له انتقاماً مروّعاً . وقد يكون في
 قصة قيس بن الخطيم شاعر المدينة في الجاهلية ما يصور ذلك تصويراً
 دقيقاً : فقد حدث الرواة أن رجلاً من بني عامر سكا نجد قتل جده

وكان يسمى عدياً ، وأن أباه الخطيم قتله رجل من بني عبد القيس
سكان هجر قبل أن يثار لأبيه عدى ، فخشيت أم قيس على ابنها
وكان صبيّاً أن يطلب بثار أبيه وجده ، فهلك دون غايته ، فعمدت إلى
كومة من تراب عند باب دارها فوضعت عليها أحجاراً ، وجعلت تقول
لقيس : هذان قبرا أبيك وجدك ، فكان قيس لا يشك في ذلك ، وشب
قويّاً شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان قومه ، وخاف الفتى
على نفسه ، فقال له ليرده عنه : والله لو جعلت شدة ساعديك على
قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك ، فقال له : ومن قاتل أبى وجدى ؟
قال : سل أمك تخبرك ، فمثل أمامها ، وأمسك بسيفه ، فوضع مقبضه
على الأرض وحدّه القاتل في صدره مائلاً عليه ، وقال لها : أخبريني
من قتل أبى وجدى ؟ قالت له : ماتا كما يموت الناس ، وهذان
قبراهما بالفناء ، فقال لها : والله لئن لم تخبريني بمن قتلها لأتحملا
على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، فأخبرته بالحقيقة . فخرج
لتوه إلى بستانه ، فوجد بعيره يُسْتَقْتَى عليه الماء من بئر هناك ، والدلو
ممدودٌ لأخذ الماء ، فضرب الحبل بسيفه فقطعه ، وسقطت الدلو في
البئر ، وأخذ برأس البعير ، فحمل عليه غرارتين من تمر ، وركبه
قائلاً : من يكفيني أمر أحمى ، فإن متّ أنفق عليها من هذا البستان
حتى تموت ثم يكون له ، وإن عشت فهو مالى عائد إلىّ ، وله منه أن
يأكل ما شاء من تمره . وتكفل له بذلك رجل من قومه ، ومضى تطويه
الأيام والشهور ، وهو يتحسس ويبحث ، حتى عرف القاتلين ،
وظل يلتمس غرة من كل منهما حتى أصابها وأدرك ثأره لأبويه ، وقرت

عينه واطمأنت نفسه ، وأنشأ يقول :

ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضِغْ وَلَايَةَ أَشْيَاخٍ جُعِلَتْ إِزَاعُهَا

وهي قصيدة طويلة تصور مدى ما كان يضطرم في نفسه من غضب عنيف على قاتلي أبيه وجده ، وكيف كان يتحرق ويتلهف على لقاءهما كي يسفك دماءهما ويضع عن ظهره أعباء الثأر التي ألقت بكلاهما عليه ، وتهداً نفسه وتستريح بعد طول العذاب وطول العناء .

ويخيل إلى الإنسان كأن كل عربي في الجاهلية كان قيس بن الخطيم ، فهو لا يقر له قرار ، إلا إذا أدرك ثأره ومحا عاره ، وكذلك كانت كل عربية ، ماتزال تصلى بنار الثأر ، وماتزال تندب البطل المقتول وتصيح ، وماتزال تنشّد الأناشيد الحماسية صارخة من أعماقها في أبطال قبيلتها : هبوا للثأر واغسلوا عنا العار وما جلب لنا من الذل والهوان على نحو ما هو معروف عن رثاء النساء لأخويها صخر ومعاوية ، وهو ليس رثاء فقط بل هو أيضاً تجسيد لعظيم المصاب فيهما حتى يحس قومها بما خسروا في البطلين وينكلوا بقاتليهما ويمزقوهم شر ممزق .

وعلى نحو ما كانت سيوفهم مسالوة لمحو عار الثأر والقعود عنه كانت مسالوة أيضاً لا تغمد دفاعاً عن الشرف والعرض ، ومن خير ما يصور ذلك قصة عمرو بن كلثوم سيد بني تغلب وبطلهم في الجاهلية مع عمرو ابن هند أمير الحيرة ، فقد قص الرواة أن هذا الأمير أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ، فأقبل عمرو في جماعة من تغلب ، ومعهم أمه ليلى بنت مهلهل . وأمر عمرو بن هند برواق ضُرب لعمرو وأمه وقومه فيما بين

الحيرة والفرات ، - وأرسل إلى وجوه أهل إمارته ، فحضروا . ودخل
ابن كلثوم على ابن هند في رواقه ، ودخلت أمه على هند في جانب
من الرواق ، فرحبت بها ، وكان بجوارها أطباق وطرف كثيرة ، ولم تلبث
أن قالت لليلى : ناوليني يا ليلي ذلك الطبق مشيرة إليه ، فقالت لها ليلي :
لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وكررت وألحت .
فصاحت ليلي : واذللاه يالتغلب ! فسمعها ابنها ، فثار الدم في وجهه ،
وكان بالرواق سيف معلق ، فوثب إليه ، وضرب به رأس ابن هند ضربة
قاتلة ، ونادى في أمه ومن معه من قومه ، وولوا وجوههم مسرعين نحو
ديارهم ، وفي ذلك نظم معلقته النونية المشهورة يفتخر فيها فتخراً مسرفاً
بقومه وأيامهم وانتصاراتهم في الحروب ، وهي مفعمة بالمبالغة في الفخر
ووصف البلاء في الحرب ، وهي مفعمة أيضاً بروح عاتية كلها عتو
وكلها تمرد . وهي تصور مدى ثورة الجاهليين حين تسول لشخص نفسه
أن يمس شرفهم من قريب أو من بعيد ، فلأنهم يثورون ثورة لا حدود لها ،
ثورة تزهق فيها النفوس ، وتفارق فيها الأجساد الرءوس . وكانت حماية
النساء جزءاً لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم ، ولعلمهم لذلك كانوا يصحبونهم
معهم في الحروب ، حتى يلبسهم حمية في القتال ، وحتى يشعلهم
بأناشيدهن وإثاراتهن وتهيجاتهن حماسة وبسالة ، وحتى يصمدوا من
دونهن ذيادةً عنهن ، مهما استعر أوار القتال ومهجا أتت على الرجال
والأبطال ، وفي ذلك يقول ابن كلثوم في معلقته مفاخرأً بنساء قومه :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أَخَذْنَ عَلَى بَعُولَتِهِنَّ عَهْدًا إِذَا لَاقُوا كَتَائِبَ مُؤَلَّمِينَا
لَيْسْتَلِبْنَ أَفْرَاسًا وَبَيْضًا وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مَقَرَّنِينَا
يَقْتُنَّ جِيَادَنَا وَيَقْلُنَّ لِسْمَ بَعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا
إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَا حَيِّينَا لَشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا بَقِينَا

فساؤهم الحملات اللأئي شغفن قلوبهم حباً من ورائهم ، وأشد ما يخشونه أن تدور عليهم الدوائر في بعض الحروب فيقعن في أيدي الأعداء سبايا وغنائم ذليلات صاغرات . ويقول عمرو إنهن أخذن على أزواجهن من الأبطال والشجعان عهداً ألا يبرحوا ساحة القتال إلا بعد تنكيلهم بالفرسان وإراقتهن دماءهم وحزهم رؤوسهم ، ومن بقى منهم جاءوا به مقرّناً في الأغلال والقيود ، وكن يهددنهم إذا لم يدودوا عنهن ويحموهن بلأنهن سيفارقنهم فراق الأبد . ويقول عمرو إنه لا حياة لهم بدونهن ، وهم الدماء يثبتون ثبوت الجبال الرواسي في حمايتهن والدفاع عنهن حتى لذلك الأخير .

وكانت قبائلهم تحمل جناية أي فرد منهم ، فبمجرد قتله شخصاً من قبيلة تصبح قبيلته شريكة معه في دمه ، واستقر ذلك في نفوس القبائل جميعاً ، بحيث لا تطلب القبيلة ثأرها من واتها وحده ، بل تطلبه من جميع قبيلته كلها وسرعان ما يتدافعون في حرب مبيدة ، وقد تتسع الحرب ، فتتحالف القبيلتان المتحاربتان مع قبائل أخرى ، ونصبح إزاء حلفين كبيرين ، وتتوالى الوقائع . وكانوا يسمونها أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهراً حتى إذا دخل الليل أغمدوا السيوف إلى الصباح . وعادة

ينسبونها إلى البقاع والآبار والجبال التي تنشب بجوارها ، مثل يوم عين
أُبَاغ وكان بين المناذرة والغساسنة ، ويوم شعب جبلة وكان بين عبّس
وأحلافها من بنى عامر بن صعصعة وبين ذبيان وأحلافها من تميم ،
ويوم الرّحرحان بين قيس وتميم ، ويوم بزاحة بين ضبة وإياد ، ويوم
بعاث بين الأوس والخزرج في المدينة. وكانوا يغمدون سيوفهم في الأشهر
الحرم فلا يقتتلون ، إلا بعض مناوشات اشتركت فيها قریش وكنانة وهوازن
وبنو عامر وتسمى بأيام الفِجَار. وتعد أيامهم بالملثات حتى لقد بلغ بها
بعض المصنفين القدماء وهو أبو عبيدة ألفاً ومائتى يوم ، وكان لكل يوم
أبطاله وفرسانه المعلمون ، ومن أشهر أيامهم يوم ذى قار قبيل الإسلام ،
وهو اليوم الذى هزمت فيه قبيلة بكر بقيادة هانئ بن قبيصة الشيباني
جموع الفرس وجيوشهم ، وذوقار واد متاخم لسواد العراق ، ويسمى
هذا اليوم أيضاً يوم حِنُو قُراقرو وهو موضع بجانب ذى قار ، وهو أول
يوم انتصفت فيه العرب من العجم مما جعل الأعشى يصيح في وجوههم
بمثل قوله :

وَجُنْدُ كِسْرَى غَدَاةَ الْحِنُو صَبَّحَهُمْ

منا غطاريف ترجو الموت فانصرفوا

لما أمالوا إلى النُّشَاب أَيْدِيَهُمْ

مِلْنَا بَبِيضٍ فَظَلَّ الْهَامُ يُقْتَتَفُ

ونخيل بكرٍ فما تنفك تطحنهم

حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

لو أن كل معد كان شاركننا

في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

والأعشى يشيد باستبسال قومه في الحرب وما أنزل فرسانهم على
العجم من صواعق السيوف التي أطاحت برءوسهم ، وكأنما كانت قد
أينعت وحن قطافها ، بل كأنما نصبت رحي كبيرة ، تطحنهم طحناً .
ولم يكد ينتصف النهار حتى ولوا الأدبار ، وبكر من ورأهم تدق رقابهم
وتشق رءوسهم ، وحق للأعشى أن يعد ذلك اليوم شرفاً للعرب جميعاً
من معد وغير معد ، فقد أدبيل لهم من الفرس وأصبحوا قاب قوسين
أو أدنى من سحقهم سحقاً لا تقوم لهم قائمة من بعده .

ومن أشهر أيامهم فيما بينهم حرب البسوس التي استمرت أربعين
عاماً بين بكر وتغلب وحرب دا حس والغبراء بين عبس وذبيان وبطلها
غير مدافع بل ليثها المقدام عنزة بن شداد العبسي . كان أبوه من
سادات عبس وشجعانها ، أما أمه فكانت جارية حبشية تسمى زبيبة
وكان من تقاليد الجاهليين ألا يلحقوا أبناءهم من الجوارى والإماء بنسبهم
إلا إذا شبوا وأبدوا شجاعة وبسالة فذة ، وإلا ظلوا عبيداً أذلاء .
وكان أسود اللون ، فاجتمع عليه ذلان ، ذل الأم وذل اللون الذي ورثه
عنها ، وأحس ذلك في أعماقه ، وكان قوى الجسم موثق الخلق ، فتدرب
على الحرب والفروسية ، وأبوه وقومه غير آبهين له . وحدث أن أغارت بعض
أحياء من العرب على حبيته ، فأصابوا منهم واستاقوا إبلاتهم ، وثار لقومه
فكر عليهم ، وأبلى بلاء حسناً في حربهم واستنقذ الإبل ، ففرح به أبوه

والحقه بنسبه ، ورد عليه حريره . وبذلك غسل ذل ولادته وذل لونه
وأصبح في عداد قبيلته الأحرار الأبطال . وكان يكنى "حباً لعبلة ابنة
عمه مالك ، فطلبها من أبيها ، وضمن عليه بها ، إما لسواده ، وإما لنسبه
من أمه ، وكان حبه لها قد ملأ عليه قلبه وعقله ، فحز في نفسه رفض عمه له ،
وظل مفتوناً بها هائماً أشد ما تكون الفتنة والهيام . واتفق أن كان الشعر
قد أخذ يتفجر على لسانه نبأ عذباً سائغاً شرابه ، فاتخذته أداة للتعبير
عن بطولته الحربية وحبه الظامى لابنة عمه التي شغف بها وفتن بجمالها ،
وإنه ليعلن إليها مراراً أنه إنما يقاتل ويستبسل في القتال من أجلها ، ودائماً
خيالها لا يبرح ذاكرته حتى في أخرج المواقف وأقصى الظروف ،
والرماح تأخذه وتعبث به من كل جانب ، على نحو ما يصور ذلك قوله :

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلُ

منى وببيضُ الهند تقطر من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنها

لمعتُ كبراقِ ثغرك المتبسّم

وهي صورة من امتزاج الحب بالحماسة واختلاط نار الحرب بنسيم
الحب . وعلى نحو ما يقدم لصاحبه بطولته الحربية يقدم لها بطولته
النفسية والحلقية على شاكلة قوله لها في المعلقة :

أثني على بما علمتُ فإنني سمحٌ مخالفتي إذا لم أظلم

فإذا ظلمتُ فإن ظلمي باسلٌ مرٌّ مذاقته كطعم العلقم

وإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحتُ فما أقصّر عن نَدَى وكما علمتِ شمائلِي وتكرُمِي
هلا سألتِ القوم يا ابنة مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمِي
يخبرك من شهد الوقائع أنني أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنمِ

وهو يصور نفسه لعبة أبيضاً لا يقبل الضيم ولا الظلم بأى لون من ألوانه ، بل لا يطيقهما ، فإن ظلم أصبح كالبركان النائر ، يرد على الظلم بظلم مرير لا يبتى ولا يذر ، وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ولا بطولته الخلقية والنفسية ، فعرضه وشرفه دائماً مصونان محميان لا يستطيع أحد أن يمسهما بسوء ، وكأنهما غيلان لأسد هصور .
ودائماً يسارع إلى المكارم والمحامد وكأنه الغيث كرمًا وجوداً ، ويتوجه لصاحبه بالخطاب أن تسأل عنه الفرسان والأقران ليحدثوها عن شمائله وشيمه الرفيعة ، وكيف أنه يقتحم المعارك ويصلى نارها مطيحاً برءوس الشجعان كأنه القضاء النازل ، حتى إذا أخذت كتيبته تجمع الغنائم والأسلاب كف وأحجم ، عفة نفس عظيمة همها المسلوب وسفك دمه لا السلب والغنيمة ، فهو لا يحارب من أجل الغنائم وإنما يحارب من أجل المجد الحربى وشرفه الرفيع . وتكثر عند عنرة الأبيات التى يصور فيها صلابة نفسه واعتداده بكرامته وبأنفته وعزته وترفعه عن الصغائر والمغريات وتعففه عن كل طعام خبيث دنىء ذميم ، يقول :

لا تَسْقِنِي ماء الحياة بذلَّة بل فاسقِنِي بالعزَّ كأس الحنْظَلِ
ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظله حتى أنال به كريم المأكَلِ

فهو يرفض ماء الحياة المزوج بالذل ، بل إنه يرفض الحياة كلها من أجله . أما العز فإنه سعادته في دنياه ، وهو يقبل عليه وعلى كؤوسه ولو كانت مترعة بنقيع الحنظل الذي لا يطاق . وهو يؤثر الطوى والجوع الشديد حتى الموت على الطعام الكريه الذي يزدريه أمثاله من أصحاب النفوس الأبية . ونراه يقف أمام المرأة نفس هذا الموقف الكريم ، وكان كثيراً ما يسبي النساء ، ويحدثنا أنه ما استام أو بعارة أخرى ما راود سبية عن نفسها ، بل كان يدع لها حريتها لتقبله زوجاً أو ترفضه ، فإذا قبلته أدى إلى أهلها صداقها ، كما يحدثنا أنه دائماً يغض طرفه ويكف بصره عن جاراته حتى لا يؤذيهن بنظراته وتطفلاته ، يقول في إباء وشمم :

ما استمتُ أنثى نفسها في موطنٍ
حتى أوفى مهرها مولاها
وأغضّ طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يوارى جارتي مأواها
إني امرؤٌ سمحُ الخليفة ماجدٌ
لا أتبع النفسَ اللّجوجَ هواها

فنفسه لا تندفع في تحقيق مآربها الجسدية ، بل هو يكفها كفّاً بل يقطعها عن هذا المآرب أو ذاك من المآرب التي قد يلتمسها صغار النفوس من حوله ، حتى تلك المآرب التي تتعلق بالمرأة . وناهيك بما

كانت تستشعره السبية من ذل ، وكأنما عاهد نفسه الكريمة أن يرد لها اعتبارها وكرامتها أولاً قبل أن يقربها وقبل أن تقبله زوجاً . أما امرأة جاره فإن وفاءه له جعله لا يمد عينه إليها . وإنه لمجد نفسي خلق لا يقل روعة عن مجده الحربي . وما زال يكتب سطور هذا المجد بسنان سيفه وما سفك من دماء أقرانه حتى وافاه القدر قبيل البعثة بنحو سبع سنوات . وكان تجسيده في أشعاره لبطولة العرب في الجاهلية من جميع أقطارها الحربية والنفسية والخلقية سبباً في أن تنصبه العصور التالية تمثالا للبطولة العربية وكأنه أصبح الناطق عن شعاراتها . ويدور الزمن دورات يخرج فيها العرب من جزيرتهم يفتحون مشارق الأرض ومغاربها ويبلون في فتوحهم بلاء عظيماً ، ويدخلون في معارك لا تكاد تنهى منها معركة حتى تنشب أخرى مع الترك والفرس والبيزنطيين والروم ، وهم يقطعون سهرهم في الليالي الطويلة بالحديث عن أبطالهم وخاصة عن بطل الجاهلية ويتكاثر الحديث والقصص عن حبه لعبة ابنة عمه وعن حروبه وشماله ، ويبالغ القصاص في تصوير بطولته حتى لتشوبها الأسطورة . وما يزال القصص عنها وعن صاحبها ينمو مع الزمن حتى يتجرد له أديب مصري في العصر الفاطمي يسمى يوسف بن إسماعيل فيصنع منه قصة طريفة ألفها في أجزاء صاغها من السجع والشعر ، وقطع الحديث في نهاية كل جزء في تضاعيف وصفه لمعركة حامية الوطيس ، حتى يجذب القارئ لمتابعة أحداث القصة في الجزء التالي . ومضت العصور التالية بعد عصر يوسف بن إسماعيل تضيف إلى القصة خوارق جديدة حتى اتخذت شكلها النهائي في القرن السابع الهجري ، وهو شكل تحول

بها إلى أسطورة خيالية ، ليس للحقيقة فيها إلا ظل ضئيل ، فعنزة لا يزال
بطل عبس ، ولا يزال ابن زبيبة الجارية السوداء ، ولا يزال العاشق
المفتون بعبلة ابنة عمه مالك ، ولا يزال صاحب الأجداد الحربية في الجزيرة
العربية ، غير أن القصة لا تقف عند ذلك فإنها تجعله يشارك العرب
في حروبهم مع الحبشة والفرس وبيزنطة والحروب الصليبية وروما
والأندلس . وبذلك تصبح القصة تاريخ الأجداد الحربية للعرب على مر
العصور وكأنما تحولت إلى ملحمة تضم بطولتهم القديمة في الجاهلية
وبطولاتهم التالية في الإسلام ، بل وكأنها إلياذة العرب التي أودعوا
فيها مغامراتهم وبطولاتهم الحربية ، وعنزة فيها نبع لا يزال سائلا بالبطولة
في بلاده وغير بلاده ، بل لا يزال يمدنا ببطولات خارقة تشعل الحماسة
في نفس كل عربي .

في الإسلام

بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام للعرب والناس أجمعين هادياً ونبياً كريماً مبشراً ونذيراً ، فلما أخذ يدعو قومه من قريش سخرُوا منه ، وقالوا كاهن أو ساحر أو مجنون . ومضى في دعوته ومضوا يضطهدونه هو ومن آمن به ، فنصح لبعض أتباعه بالهجرة إلى الحبشة حتى لا تفتنهم قريش عن دينهم الحنيف وتردّهم إلى عبادة الأوثان . وخرج الرسول إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام لعلمهم يكونون أكثر قبولا لدعوته ، فردوه أسوأ ردّاً إذ أغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة . ولما يش منهم ومن قومه عرض نفسه في موسم الحج الجاهلي للكعبة على بعض الوافدين من أهل المدينة ، فأمنت به طائفة منهم ، وفي الموسم التالي آمنت طائفة أخرى أكثر عدداً بايعته على نصرته والدفاع عن حياض دعوته ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً أن يهاجر إليهم هو وأصحابه ليمنعوهم ، وليشاطروه في نشر رسالته والذيات عنها بالسيف حين لا يكون مفر من حمله ، وعاهدوه على ذلك عهداً وثيقاً لا يمكن نقضه . ولما أمنت قريش في تعذيب من آمن بمحمد منها أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلاً لهم : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تآمنون فيها ، فخرجوا أرسالا ، وصممت قريش الباغية على قتل الرسول فهاجر مع أبي بكر الصديق مستخفياً ، وكان وصوله إلى المدينة يوم عيد لأهلها من الأوس

والخزرج ، وكانت الحرب مستعرة بينهما فألف بين قلوبهما ، وسُمّوا
 الأنصار ، وسُمّي الذين هاجروا من مكة باسم المهاجرين ، وآخى بينهما
 جميعاً . ولم تلبث الحروب أن نشبت بينه هو وأصحابه من أهل المدينة وبين
 قريش وتتابع الغزوات الكبرى في بدر وفي أحد وانتهت بانتصار كلمة
 الله العليا على كلمة الكافرين السفلى وأعوانهم من اليهود أعداء الإسلام
 الذين كانوا يعملون سراً وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية ناكثين
 عهد الرسول معهم وموآثيقه .

ولم تكد تدخل السنة العاشرة للهجرة المقابلة لسنة ٦٣٢ للميلاد
 حتى أتم الله نوره على العرب ، فإذا قبائلهم جميعاً تعتلق بالإسلام مؤمنة
 بتعاليمه العقيدية والعملية ، متحولة بذلك من قبائل وثنية متنازعة متخاصمة
 إلى أمة تتعاون على البر والخير والتقوى ، تؤمن بإله واحد يسيطر على
 الكون ويحيط علمه بكل ذراته ، وسعت رحمته كل شيء ، كما تؤمن
 برسله وكتبه واليوم الآخر وما يتصل به من بعث وعقاب وثواب وجحيم
 ونعيم . وتؤمن بأن وراء عالمنا المادى عالماً غيبياً يشتمل على نوعين من
 الأرواح الخيرة والشريرة هي الملائكة والشياطين . وتؤدي أعمالاً
 وفروضاً دينية قوامها الصلاة والصيام والحج والزكاة . وتتحلى بمثالية
 خلقية تقوم على نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ونبذ الخمر والقمار
 والبغى والعدوان والكبر والظلم ، واجتناب الأخلاق الذميمة مثل الغيبة
 والنميمة والعصبية القبلية التي أشعلت بينهم في الجاهلية الإحن والأحقاد
 وأحالت حياتهم إلى ترات وأثار لا تنهى . ولكي يقضى الإسلام على
 فكرة الأخذ بالثار نقل حَقَّه من القبيلة إلى الدولة ، فلم يعد الثار

يجز ثاراً في سلسلة من الحروب والمعارك الطاحنة بل أصبح عقاباً بالمثل وعلى قبيلة القاتل أن تقدمه لأولى الأمر حتى يلقي جزاءه . وأرسي الإسلام بجانب ذلك نظاماً اجتماعية واقتصادية جديدة للأمة العربية ، إذ حاول أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في حياتها بفرضه على الموسر أن يرد بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأئمة وينبغي أن يتكافل مع أفرادها ويترايط معهم اجتماعياً واقتصادياً . وكانوا يحلون الربا فحرّمه القرآن الكريم ، كما حرم التلاعب في البيع ، وشرع توريث المرأة وجعل لها حق التصرف في أموالها ، ودعا دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق .

وعلى هذا النحو رسم الإسلام للعرب مثلاً علياً جديدة في التشريع والنظم الاجتماعية والاقتصادية وفي العقيدة وشئون العبادة وفي السلوك والقيم الخلقية وما يتصل بها من الفضائل ، ففضيلة الكرم التي كان يبالغ فيها الجاهليون طلب فيها الاعتدال وألا تسقط بين التفريط والإفراط ، يقول جل شأنه : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) بل لقد وجه الكرم إلى خدمة المجتمع الجديد مجتمع الأمة ، بحيث ينفق الموسر على المعسر ، وسمى ذلك قرضاً لله وعده حقاً مفروضاً إذ يقول : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وكان قد جعلهم حب الانتقام والأخذ بالثأر ، يعدون الصفح والعفو رذيلة ، فعدّهما فضيلة وحث عليهما وعلى كظم الغيظ بمثل قوله : (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله

يحب المحسنين) . وكلها تعاليم تخالف ما كان عليه العرب في الجاهلية ، وقد كونت منهم أمة يسودها الخير والعدالة ، ويجب كل فرد فيها لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويتعاون معه في كل صغيرة وكبيرة من شئون حياته ودينه .

ولم تجتمع هذه الأمة حول الدين الجديد بالحكمة والموعظة الحسنة وحدهما ، بل لقد اضطر الرسول في مقامه بالمدينة إلى أن ينازل مشركي قريش والعرب حتى يهدم طواغيت الوثنية العاتية . وطال النزال ونشبت معارك كثيرة ، انتصرت فيها بطولة الدين الحنيف على بطولة الوثنية والعصبية وما يتبعها من الأخذ بالثأر ومحبة الانتقام . وبون بعيد بين بطولة لا باعث لها سوى التخلص من عار القعود عن طلب الثأر وعن الصريخ والاستغاثة ، وبطولة باعثها الجهاد في سبيل الله وسبيل نشر دينه العظيم ، وهو جهاد يفتح للمستشهرين فيه أبواب جنات النعيم على مصاريعها وأبواب رحمته ومحبته ورضوانه . وتكثر في القرآن الآيات الكريمة التي تحض على الجهاد وبذل المهج والأرواح والأموال وكل نفيس غال في سبيل إعلاء كلمة الله من مثل قوله تبارك وتعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) ، وقوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ، وقوله : (لينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقوله : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفاترون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم) ، وقوله : (انفسروا خيفاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم

خير لكم إن كنتم تعلمون) وقوله : (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) ، وقوله عز شأنه : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) . ويقرن القرآن الجهاد كثيراً بالصبر والثبات واجتماع الكلمة من مثل قوله جل وعز : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ، وقوله : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقوله : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) . وكان الرسول عليه السلام لا يزال يحرض على الجهاد في سبيل الله صادعاً بأمر ربه في مثل قوله تعالى : (يا أيها النبي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ) وهو تارة يخطب في جنده وتارة يحدثهم أحاديثه النبوية على شاكلة قوله : « من قُتِلَ مجاهداً أو مات مرابطاً فحرام على الأرض أن تأكل لحمه ودمه ، ولم يخرج من الدنيا حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وحتى يرى مقعده من الجنة » ، وقوله : « في كل أمة رهبانية ، ورهبانية أمي الجهاد » ، وقوله : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في أنف مسلم » ، وقوله عن ربه سبحانه : « من خرج مجاهداً في سبيل ابتغاء مرضاتي فأنا عليه ضامن أو هو عليّ ضامن ، إن قبضته أدخلته الجنة وإن رجعته رجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة » ، وقوله : « لرباط يوم خير من صيام شهر وقيامه (بالصلاة ليلاً) » .

وقد أحالت هذه الأحاديث وما يماثلها من كلام الرسول عليه السلام ومن آي الذكر الحكيم الصحابة إلى أبطال خلقوا للجهاد في سبيل الله ، أبطال لا يخشون الموت ولا يرهبونه ، بل إنه يمشي في ركابهم لينزلوه

صواعق على أعداء الله ورسوله ودينه الذين استحالوا إلى كباش تنتظر الذبح ، فلا يلتقون معهم حتى تسيل دماؤهم أنهاراً ، وكأنما اخترع الدين الحنيف أبطاله اختراعاً . بل إنه الإيمان وما ينتظره أصحاب الرسول من الثواب والنعيم الأخرى الدائم هو الذى أحال كل فرد فيهم إلى أسد يزار ويزجر ويفتك بالكفار فتكاً ذريعاً . وكأنما أصبحوا رموزاً لبطولات سماوية تصارع بطولات أرضية ، مما جعل حروبهم كلها ظفراً وانتصاراً مؤزراً . ولكي تتضح لنا روح هؤلاء الأبطال الجدد يحسن أن نقف قليلاً بإزاء ما كان من حوار بين الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار قبل وقعة بدر الكبرى ، فإنه لما علم بمسير قريش لقتاله جمع أصحابه واستشارهم هل يقدم على حرب قريش ونزالها أو يحجم ؟ فقام المقداد أحد المهاجرين فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله (من قتال المشركين) فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك بالنصر المبين . فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير . وأقبل على الأنصار يريد أن يعرف ما عندهم قائلًا : أشيروا على أيها الناس ، فقال له سعد بن معاذ الأنصارى : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا

هذا البحر (الأحمر) فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فانهض بنا على بركة الله . وسرَّ الرسول بقوله ، وتوجه إلى القوم فقال لهم : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم . وسار مع جنده من المهاجرين والأنصار حتى نزل بماء بدر ، وأقبلت قريش بصناديدها ورجالها في جيش كثيف يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، والتقت الفئتان ، ودنا أفرادهما بعضهم من بعض ، ونهض رسول الله إلى أصحابه يحرضهم ويمجهم ويستنهضهم قائلاً : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري وفي يده تمرات يأكلهن : بَخِ بَخِ ! (عجباً عجباً) فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم ألقى التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم فاعلا بهم الأفاعيل حتى قُتل وهو يقول :

رَكْضاً إِلَى اللَّهِ بغير زَادٍ إِلَّا التَّقَى وعمل المعادِ
وَالصَّبْرُ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةٌ النَّفَادِ
غَيْرُ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالرَّشَادِ

وهجم أصحاب رسول الله على الفئة الضخمة الباغية يقتلونهم ويحتزون رءوسهم ويأسرونهم ، حتى ولوا الأدبار وهم صاغرون . وقد خلفوا من ورأيهم مائة وأربعين من ساداتهم وأبطالهم بين أسير وقتيل ،

غير الأنفال والغنائم الكثيرة التي أفاءها الله على المسلمين . ومضت
فلول قريش ثثن من هول المعركة، وارتفع الصياح والعيول والنحيب
في كل دار ، وأجمعت قريش أن تعود لحرب محمد وأصحابه، ومازالت
تعدّ لذلك حتى خرجت ومعها النساء ينشدن الأناشيد الحربية، ونزلت
بجوار «أحد» قرب المدينة، ولقيها الرسول وأصحابه، وأبلى على بن أبي
طالب وحمزة وأبو دجانة بلاء حسناً وقاتل الصحابة قتالا شديداً ببصائر
ثابتة ، فانهزمت قريش ، وتركت الرماة مواقعها ، فكرر المشركون :
وقتلوا طائفة من المسلمين بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وصبر الرسول
على الرغم من جراحة أصابت وجهه الكريم ، صبر مع صحابته حتى
انقشعت الغمرة ، وفي تلك الغزوة كان على بطلها ينشد :

لعمري لقد قاتلت في حُبٍّ أحمدٍ
وطاعة ربٍّ بالعباد رحيمٍ
وسيفي بكفّي كالشهاب أهزه
أجدُّ به من عاتقٍ وصميمٍ
فما زلت حتى فضّ ربّي جموعهم
وحتى شفينا نفس كلِّ حلیم

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن ابن أبي طالب كان البطل المعلم الذي
ترتجف عند سماع اسمه أبطال الكفار والمشركين . ومن صور بطولته
المجيدة أن عمرو بن عبد ودّ أحد صناديد قريش خرج في غزوة الخندق

يطلب التزال وقد ركب فرساً له ، فخرج له على وقال له : يا عمرو ، إنك كنت تعاهد الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما قال : أجل ، قال على له : فإني أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله والإسلام قال : لا حاجة لي بذلك قال : فإني أدعوك إلى التزال ، قال عمرو : ولم يا بن أخي فإني والله ما أحب أن أقتلك؟ قال على : ولكني والله أحب أن أقتلك : فحمى عمرو عند ذلك ونزل عن فرسه وضرب وجهه ، ثم سار نحو ابن أبي طالب ، فتنازلا وتصارعا صراعاً شديداً ، وثار الغبار بينهما حتى حال دونهما ، فلما انجلى عنهما شوهد على وهو على صدر عمرو يحتر رأسه ، ثم وقف وهو يصيح بعمرو وانتصاره للأوثان والأنصاب التي كانوا يقصدونها ويدبحون لها القرابين ، كما يصيح بالأحزاب الذين تجمعوا مع قريش لقتال الرسول وأصحابه :

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضُرَابِ
لَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ خَاذِلَ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الْأَحْزَابِ

وفي كل غزوة نلتقي بعلي وبطلوته الخارقة وهو يطيح برءوس المشركين والكافرين وكأنه يطلب الاستشهاد والقتل ليفوز بالحسنين : رضوان ربه ونعيمه ، وحقت فيه كلمة العرب التي توارثوها من قديم : اطلب الموت توهب لك الحياة ، فكان يكنى أن يلمع أمام منازله سيفه ذو الفقار فإذا رأسه قد فارق جسده إلى غير مآب ، وبحق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيفه وفيه : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » .

ولما فرغ الرسول من عمرة القضاء وعاد إلى المدينة بعث جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف لحرب الروم في الشام ، وجعل قيادته لزيد بن حارثة ، ثم قال : إن لصيب زيد فالقيادة لجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب خلفه عبد الله بن رواحة . ومضوا حتى نزلوا معان جنوبي الأردن ، فبلغهم أن هرقل إمبراطور بيزنطة نزل مدينة مآب من أرض البلقاء (عمّان) في مائة ألف من الروم وانضم إليه مائة ألف من عرب الشام . فلما بلغ ذلك زيدا وأصحابه أقاموا في معان يومين ينظرون في أمرهم ، وقال نفر : نكتب إلى رسول الله ونخبره بعدد عدونا ، فيما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له ، ووقف عبد الله بن رواحة ونادى في الناس قائلاً : يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبونه وقد أدركتموه ، يريد الاستشهاد في سبيل الله . ثم قال : وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا إلى لقاء القوم ، فإنما هي إحدى الحسينين : إما انتصار ، وإما استشهاد ، فقال الناس : صدق ابن رواحة ، وزحفوا إلى العدو ، وقد امتلأوا حماسة وحمية ، وكل منهم يود لو لقي مصرعه حتى تكتب له الشهادة ، وابن رواحة يحرضهم ويحثهم منشداً :

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدًا
أوطعنة بيدي حرّانَ مجهزةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبدًا
حتى يقولوا إذا مروا على جدتي أرشدك الله من غارٍ وقد رشدا

وواضح أنه يتمنى لنفسه الشهادة بضربة ذات فرغ أو سعة .

تقذف الدم الطاهر ، أو طعنة بيدي عطشان للدماء تجهز عليه بحربة
تنفذ إلى الأحشاء والكبد نفوذاً مميتاً ، حتى يذكر المسلمون من بعده
بلاءه في الله ودينه . وكأنما استجاب الرحمن دعاءه وسؤاله ، فقد مضت
الفئة القليلة ، حتى إذا كانت بمؤتة إحدى القرى القريبة من مدينة
الكرك الحالية بالأردن لقيت جيوش الأعداء ، والتحم القتال ، وترامى
المسلمون على حياض الموت ، وقاتل قائدهم زيد بن حارثة ويده اللواء
قتلاً مستميتاً حتى قُتل ، وقذف باللواء إلى جعفر بن أبي طالب ، فعقر
فرسه ، وقاتل حتى قُطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره فقطعت فاحتضنه ،
وقد غرق في الدم ، وروحه تفيض وهو ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

وحمل منه اللواء عبد الله بن رواحة ، واقتحم القوم على فرسه ،
يقتلهم ويسفلك دماءهم ذات اليمين وذات الشمال وهو يستثير نفسه
ويحمسها ويدفعها دفعاً إلى الضراب والطعان ، حتى تحقق له ما ظل
يصبو إليه من الاستشهاد في سبيل الله ، وكان لا يزال يهيجها بمثل

أقسمتُ يا نفس لتنزلن طائعةً أو فلتكرهين

قد أجلب الناس وشدوا الرنةً مالى أراك تكرهين الجنة

قد طالما قد كنت مطمئنة

وقوله :

يا نفس إلا تفتلى تموتى هذا حِمَام الموت قد لقيت

وما تمنيت فقد أعطيت وإن تأخرت فقد شقيت
وانتهى اللواء إلى خالد بن الوليد ، فرأى من الحكمة أن ينصرف
بمن معه عن الحرب ، فانحاز بهم وعاد إلى المدينة . وكان ما أظهرت
هذه الجماعة القليلة من البسالة هي التي جعلت الروم فيما بعد كلما التقوا
بالمسلمين في عصر الفتوح ألقوا إليهم عن يد وهم صاغرون .

ولم يصور الأبطال وحدهم بطولتهم في غزوات الرسول ، فقد كان
يشركهم في تصويرها الشعراء من حولهم . ولعل شاعراً لم يشهر بذلك
كما اشهر حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، ويقال إنه لم يشهد مع
الرسول غزوة لعله كانت قد أصابته ، وهو إن لم يشهر معه سيفه عن
عجز ، فقد شهر معه لسانه على قریش وخصومه ولم تنشب معركة أبلى
فيها المسلمون إلا وقف عندها طويلاً يسجل بلاءهم وجهادهم المستميت .

وانتصرت أخيراً وبعد كفاح شديد بطولة هؤلاء المؤمنين الذين باعوا
أنفسهم لربهم ودينهم ، وعمت أضواء الدين الحنيف الجزيرة العربية ،
وكان الرسول قد أعد جيشاً لحرب الروم ، وأصابه الإخفاق في مؤتة كما مر
بنا آنفاً فرأى أن يعد جيشاً جديداً ، وذكر الرواة أنه أرسل رسلاً إلى الملوك
ومن بينهم ملك الروم وملك فارس يدعوهم إلى الإسلام ، ويحملهم تبعة
أقوامهم ، فردَّ ملك الروم في لطف وردَّ ملك الفرس في عنف . ولما انتقل
صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى رأى أبو بكر خليفته أن ينفذ فكرته
في دعوته ملكي الفرس والروم إلى الإسلام ونشره بين أقوامهم إن لم
يكن بالسلم قبالسيف وحز الرقاب . وخرجت الجيوش شرقاً وشمالاً ، ففتح
العراق وفتحت فارس ، وفتح الشام وفتحت مصر ، ثم فتح الشمال

الإفريقي وفتحت الأندلس ، وفتحت السند وبخارى وسمرقند . وأهم سبب في قبول هذه البلدان الحكم العربي حينئذ ما رسمه الإسلام للبلدان المفتوحة والأمم المغلوبة من المعاملة الحسنة ، على نحو ما يصور ذلك عهد الرسول عليه السلام لنصارى نجران فقد أمر أن لا تُتمس كنائسهم وأن تترك لهم الحرية كاملة في ممارسة عباداتهم ، وأوجب ألا يُقتل شيخ ولا طفل ولا امرأة . وعن هذه المعاملة المنصفة صدر أبو بكر وعمر وعثمان في وصاياهم لأمراء الجيوش الفاتحة ، وكانوا حين يودعونهم يخطبون فيهم حاضين على الجهاد في سبيل الله ونشر دينه الخفيف في أقطار الأرض ، وأن يراعوا في معاملة الشعوب المفتوحة ربههم . وكان أبو بكر يطلب إليهم دائماً ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثّلوا بقتيل ولا يقتلوا شيخاً كبيراً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا ما يحتاجون إليه لطعامهم ولا يتعرضوا لرهبان النصارى بشيء يؤذيهم . واقتدى به عمر بن الخطاب ، فكان يحث على الجهاد حتى تعلو كلمة الله ويتنشر دينه في الأرض ، كما كان يحث على حسن المعاملة للأمم الأجنبية وأن يتزه العرب أنفسهم عن عرض الدنيا . وبالمثل كان يصنع عثمان .

ولكن هذه الشعوب والبلدان التي سميناها لم تدعن للعرب إلا بعد خطوب حربية شديدة وبعد أحداث عسكرية جسام ، فقد ظلت تقاوم حتى قهرتها البطولة العربية واضطرتها إلى الإذعان والاستسلام ، وهي مقاومة حولتها إلى ساحات حربية كبيرة ، كان النصر فيها دائماً حليف العرب لصبرهم في القتال وصدقهم في التزال ، ولأنهم كانوا يطلبون

الاستشهاد ، حتى يدخلوا الجنة من أوسع أبوابها . وكانوا كلما فتحوا بلداً أو انتصروا في معركة اشتدت بهم حماسهم فطلبوا معركة جديدة مؤمنين بأن الجنة تحت ظلال السيوف . وكان لا يزال قوادهم بخطبوتهم مستثيرين حميتهم لدينهم ، وكان يقوم فيهم وعاظ كثيرون يزهدونهم في الدنيا ومتاعها الزائل ، ويرغبونهم في طلب ما وعد الله به المجاهدين من النعيم الدائم ، مما جعلهم يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة . ويخيل إلى الإنسان أن كل عربي في الجزيرة أحس في عمق أن واجبه الأول إزاء ربه لا أن يصلي ويؤدي فروض دينه فحسب ، بل أيضاً أن ينتظم في صفوف المجاهدين في سبيل الله وأن يتخذ كل وسيلة لكي يظهر اسمه في لوحات الشرف ، لوحات الاستشهاد والفوز برضوان الله وقد وضع كل منهم شعاراً نصب عينيه : (ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) . وهو يناضل في سبيل هذا الشعار قرى إلى الله وزلفى لحنائه ، وأخذت سيول الجيوش الفاتحة تتدفق على العراق والشام ، وأخذت البطولة العربية تتجلى في أعظم معارضها ومشاهدها ، في الرجال والنساء اللathi كن يشهدن المعارك محرضات محمسات ، بينما كان الأبطال يدوون كالنحل بأشعار الحماسة . ولن نستطيع أن نعرض لهذه المعارك وبطولاتها بالتفصيل في هذا الكتاب المجل ، ومن أجل ذلك نكتفي بالوقوف عند معركة كبيرة واحدة هي معركة القادسية بالقرب من الكوفة التي فتحت بعدها للعرب أبواب فارس ، وكان سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل يقود الجيش العربي ، وكان رستم بطل الفرس

وقائدهم الفذ يقود جيشهم الضخم الذي أرادوا به أن يقفوا السيل العربي
ويحولوا بينه وبين الانبساط والامتداد . وصمم العرب على أن يجتاحوهم
حتى تشيع بينهم شريعة الإسلام ، وحتى يهينوهم لأداء واجبهم الإنساني
العظيم ، وكأن ذلك كان موثقاً بين الله وبين العرب رجالهم ونسائهم ،
ومن أروع الأمثلة التي تصور هذا الموثق صنيع الخنساء في ليلة القادسية
وكانت قد هاجرت إليها مع أولادها الأربعة لتشهد جهادهم في الفتوح
وقد حطمتها السن ، وكانت قد اشتهرت في الجاهلية ببيكائها على أخويها
صخر ومعاوية ، وظلت تلبس الحداد عليهما سنوات طوالاً ودمعها لا يرقأ
ولا يجف ، ودخلت في الإسلام وحسن إسلامها ، حتى إذا كانت
خلافة عمر احتسبت أفلاذ كبدها الأربعة للجهاد ، وخرجت معهم إلى
القادسية ، وسعد مفسكر بجيشه ينتظر في الغد الموقعة الفاصلة ،
فتوجهت إلى أبنائها توصيهم وتدلع الحمية لدينهم في قلوبهم ، قائلة :
« يا بني ! إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله
إلا هو إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة ، وقد تعلمون ما أعد الله
للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار
الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين
آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ، فإذا أصبحتم غداً
سالمين فاغدوا إلى عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين ،
فإذا رأيتم الحرب قد شَمَرَتْ عن ساقها .. فِيمَمُّوا (فاقصدوا) وطيسها
تظفروا بالغم والكرامة في دار الخلد والمقامة » . وما كادت الخنساء تستتم
كلامها حتى عاهد كل ولد من أولادها نفسه وربه أن يبادر إلى الحرب

حين يسمع نفيها . وبادروا مبكرين ، وحمل أولهم ، وهو ينشد :
يا إخواني إن العجوز الناصحه قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
مقالة ذات بيان واضحه فباكروا الحرب الضرروس الكالحه
وأنتم بين حياة صالحه أو ميتة تورث غنماً رابعه
وكأنه يشير في الشطر الأخير إلى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا
هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون
في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وكتب له أن يصيب ما كان يصبو
إليه من تجارة وربح كبير ، فقد ظل يقاتل حتى قتل شهيداً . وحمل
أخوه من ورائه وهو يهتف :

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأي السدد
فباكروا الحرب حماة في العدد إما الفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عزاً الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد
وهو يصف جنة الفردوس التي أعدت للمجاهدين بما جاء في نعتها
من قوله جل شأنه في خطابه لآدم : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) ، ومضى يطلب عيشها الرغد ويقاتل
في لهفة على الاستشهاد حتى قتل . وحمل حملتهما أخوهما الثالث وهو
يلوح بسيفه في وجوه الفرس منشداً :

والله لا نعصى العجوز حرقاً قد أمرتنا حذباً وعظماً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضرروس زحفاً

ولعله يشير إلى الآية الكريمة : (إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا
فلا تولوهم الأدبار) . ومازال يقاتل الفرس مقدماً غير محجم ومقبلاً
غير مدبر حتى مات ميتة الأبرار . وعمل أخوهم الرابع ، وهو يرتجز
أبياتاً من مثل قوله :

إِما لفوزٍ عاجلٍ ومَغْنَمٍ أو لوفاءٍ في السبيل الأكرم
واختاره الله لحواره ، فلحق بإخوته . وتلقب الحنساء خيرة مقتلهم ،
وكأنما كانت في انتظاره ، فلم تنح عليهم نواحها على أخويها في الجاهلية
ولاصحت ولا أعولت ، بل لكأنما فرحت لهم واستبشرت ، وإذا
هي تقول لمن أبلغوها نعيمهم : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في معارك
الجهاد الشريفة ، وأرجو منه أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

وحمل وطيس المعركة ، وخطب أمير كل فرقة من فرق الجيش
العربي أصحابه وحضتهم على الصبر في الجهاد وأن يكونوا كأسود الغاب
وأن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت
للمجاهدين . وتواتق الجند العربي وتعاهدوا للمعركة الفاصلة ، وأخذ
القائد العظيم سعد بن أبي وقاص يستثير أهل النجدة من أمثال عمرو بن
معديكرب ، وقيس بن مكشوح المرادي ، وعروة بن زيد الخيل ،
وبشر بن ربيعة الخثعمي والشعراء من أمثال الشماخ ، وعبد بن
الطيب ، وربيع بن ابن مقروم الضبي ، وعمرو بن شأس الأسدي ،
قائلاً : قوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ،
فذكروهم وحرّضوهم على القتال . وأمر سعد القراء أن يقرءوا سورة
الجهاد والفتح في كل كتيبة ، فاطمأنت قلوب الناس وأقبلوا في حماسة



على الجهاد ، وكبير سعد ثلاث تكبيرات ، وبرز أهل النجدات والبطولة
والبأس فأنشبوا القتال .

وأخذ الجيش الفارسي الضخم يتهاوى تحت أقدام البطولة العربية ،
وسالت دماء الأعاجم أنهاراً ، وأنزل الله نصره على المجاهدين في سبيله
بعد أن زلزلوا زلزالا شديداً ، فإذا الأعاجم يولون الأدبار بعد أن تركوا
وراءهم ثلاثين ألف قتيل غير آلاف الأسرى وما خلفوا في معسكرهم من
سلاح ومثونة وأداة وعدة . وبلغ من فرعهم ورعبهم أن كان المجاهد
يدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقف بين يديه فيضرب عنقه ، وحتى إنه
ليأخذ منه سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الأعجميين أن يقتل أحدهما
صاحبه فيصدعان بالأمر رهبة ورعباً . وفخر فرسان العرب وأبطالهم
بما أبلوا في هذا النصر فخراً طويلاً من مثل قول بشر بن ربيعة الخثعمي :

تَذَكَّرْ هَذَاكَ اللَّهُ - وَقَعَ سِوْفُنَا بِبَابِ قُدَيْسٍ وَالْمَكْرِ عَسِيرُ
عَشِيَّةٍ وَدَّ الْقَوْمُ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعَارِ جَنَاحِي طَائِرٍ فَيَطِيرُ
إِذَا مَا فَرَعْنَا مِنْ قِرَاعِ كَتِيْبَةٍ دَلَفْنَا لِأُخْرَى كَالْجِبَالِ تَسِيرُ
وَقُتِلَ رَسَمُ قَائِدِ الْفَرَسِ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَتَنَازَعَ شَرَفَ قَتْلِهِ كَثِيرُونَ ،
ويظهر أن رماحاً كثيرة سقطت عليه حين ضربه قيس بن مكشوح المرادي
بسيفه ، فشق رأسه وخر صريعاً يترنح في دمه . مما جعل غير بطل ينسب
هذا الشرف إلى نفسه في شعره ، وقد سجله قيس لنفسه بمثل قوله :

وَلَا أَنَّ رَأَيْتَ الْخَيْلَ جَالَتْ قَصَدْتُ لِمَوْقِفِ الْمَلِكِ الْهَمَامِ
فَأَضْرِبَ رَأْسَهُ فَهَوَى صَرِيْعاً بِسَيْفٍ لَا أَفْلَّ وَلَا كَهَامِ

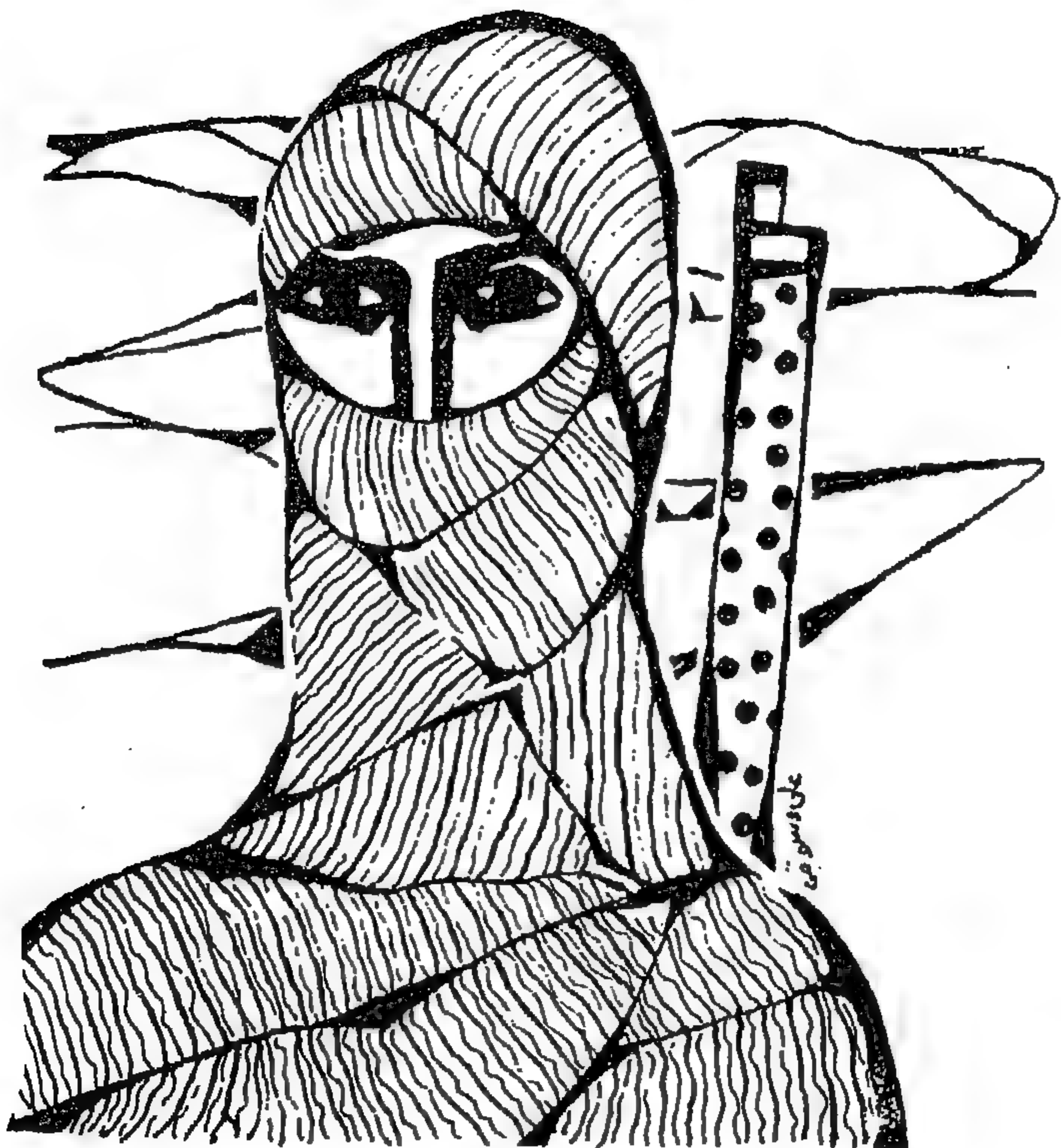
وكانت الجزيرة كلها قد تعلق قوادها بهذه المعركة ، لما كانت ترى فيها من مصيرها ، فإما ينتصر العرب على الفرس إلى الأبد ، وإما يهزمون - لا قدر الله - إلى الأبد . وكانت لا تزال تسقط أخبارها تريد أن تعرف ما سيكون من أمرها ، حتى كان الرجل يعرض عليه أمر ، فيقول لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من أمر القادسية . فلما جاءهم النصر العظيم وزفت إليهم بشره أخذوا يتغنون به رجالا ونساء وكل قبيلة تتغنى ببلاء أبنائها ، تتغنى النخع وغيرها من القبائل اليمنية ، وتميم وغيرها من القبائل المضرية . من ذلك أن امرأة سمعها الناس ليلا على جبل بصنعاء في اليمن ، وهى تتغنى بأبيات تشيد ببطولة قومها النخع في القادسية ، وفيها تقول على لسان أحدهم

فحيَّتْكَ عَنِ الْعُصْبَةِ نَخْعِيَّةٌ حسانُ الوجوه آمنوا بمحمدٍ
أقاموا لكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهندي

وتطायرت في عامة بلاد الجزيرة أغان على هذه الشاكلة تمجد شجاعة المجاهدين وتشيد بيسالتهم واقتحامهم أهوال الحرب في غير خوف ولا وجل ، بل في إقدام لا يفوقه إقدام . ويلحق بهم القاعدون ، كل يريد أن يشارك في شرف الجهاد . ويمضى الجيش العربى بعد القادسية ميمماً إيران ، ويحطم كل مقاومة تلقاه في جلولاء وفي نهاوند وفيما وراءهما من بلدان حتى خراسان ، ويتغنى المجاهدون بانتصاراتهم وبما أنزلوه بالأعاجم من تقتيل ساحق وهزائم منكرة ، وما كشفوه عن كتائبهم من خطوب ومكاره ومتالف مروعة .

وبهذه الروح الغالبة التي لا تقاوم انتصر العرب على الفرس وقوضوا دولتهم في بلادهم ، كما انتصروا على الروم في الشام ومصر وشمال إفريقيا ؛ وكل هذه الفتوح كلفت الجيوش العربية خطوباً شديداً وأهوالاً من المعارك والقتال والصراع والتزال ، وفي كل معركة وكل فتح تتجلى بطولتهم وتتجلى أمجادهم الحربية ، ويتجلى معها ما نظموه من أناشيد حماسية .

وكأنما أريد لهذا السيل الطامى الذي غمر الفجاج والشعاب من أواسط آسيا إلى مصر وشمال إفريقيا أن يتوقف فجأة وعلى غير انتظار فشبت فتنة عثمان التي انتهت بمقتله ، وببيع أهل المدينة على بن أبي طالب وتطورت الأمور ونشبت الحرب بين علي وخصومه في صفين وانتهت بقبوله التحكيم ، وثار عليه فريق من جيشه لهذا القبول كأنه لا يعرف أنه على حق ، وهم نواة الفرقة المعروفة باسم الخوارج ، وحاربهم وقتلوه غيلة . وانتهت مقاليد الخلافة إلى معاوية ، فجمع الناس ، وأخذ بحكمته يحاول أن يزيل من بينهم نار العداوة والبغضاء التي أوجبتها حروب صفين ، وخذت النار في الظاهر ، وظل جمر كثير مستتراً وراء الرماد ، وهو جمر أعدا لظهور أحزاب متعددة فإذا الحجاز والقبائل القيسية تلتف حول عبد الله بن الزبير مما أتاح للحزب الزبيرى أن يتكون ، وتكون حزب التف حول البيت الهاشمي هو حزب الشيعة الذي كان يتخذ الكوفة مستقراً له ومقاماً منذ خلافة علي واتخاذها إياها حاضرة لخلافته ، وتكون حزب ثالث هو حزب الأمويين أصحاب السلطان ينصرهم ويؤيدهم ويدعو لهم ، وتكون حزب الخوارج الذي كان ينكر أن تكون الخلافة مقصورة على أى قبيلة : قريش أو غيرها ، ويرى



أن تكون شورى بين المسلمين يتولاها أكفؤهم وأحقهم بها ولو كان أعجمياً غير عربى حتى تتحقق المساواة والعدالة بين أفراد الأمة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن البطولة الحربية العربية لم تتمثل فى حزب كما تمثلت فى حزب الخوارج ، وقد تحول كل منهم إلى مجاهد شاكى السلاح يطلب الموت والشهادة فى ميادين الجهاد ، أما جماعاتهم فتحوّلت إلى كتائب حربية تقبل على الموت بنفوس راضية ، ، وكأنه الباب الموصد بينها وبين فراديس الجنان فهى تريد اجتيازه حتى تنتقل إلى الملأ الأعلى . ولم يكن يتمنى هذا الانتقال والسرعة فى تحقيقه دون ريث أو بطل رجالم وحدهم ، بل كان يتمناه أيضاً نساؤهم وكان منهن من يحملن السيف معهن مثل أم حكيم بطلة الأزارقة ، وكانت من أشجع النساء وأجملهن وجهاً . وخطبها جماعة فردتهم ولم تجبهم ، وكانت تحمل على الناس ، وأصحابها يفدونها بالآباء والأمهات ، وهى تصل وتبجل وترتجز بمثل قولها :

أَحْمَلُ رَأْساً قَدْ سَعَمْتُ حَمْلَهُ وَقَدْ مَلَيْتُ ذَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتًى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ

وهى صورة رائعة للبطولة تصور فيها أم حكيم أمنيته فى الفوز بالشهادة ومدى ما كانت تحسه من بطل فى تحقيقها ، حتى غدت الحياة أمامها ملة مللا فظيماً ، وحتى أصبحت تشعر كأن رأسها الذى تريد له أن يفارق جسدها عبثاً ثقيلاً تحمله متنقلة به بين صفوف القتال ، وهى تريد أن تتخلص منه ، حتى تنفذ من حياة الدنيا الزائلة إلى حياة الآخرة الباقية .

ومن أكبر أبطال الخوارج قاطبة قطرى بن الفجاءة المازنى زعيم
فرقة الأزارقة بفارس ، وقد ظل نحو عشرين سنة يقاتل جيوش الأمويين ،
وينتصر عليهم ، حتى قتل بعد معارك عنيفة ، وله أشعار كثيرة يصور
فيها بلاءه في الحرب ، والأمويون يرسلون إليه الحملة تلو الحملة ، وهو
لا يريحهم ولا يستريح ، فبين جنبيه بطولة لا تقهر ، وهو يخاطر
بنفسه ويقاوم ويدافع ما وسعته المدافعة في كل شبر من الأرض ، لا يستسلم
ولا يلتقى السلاح خوفاً من حمام أو موت ، وما ينى يدعو نفسه إلى
الصبر والثبات بمثل قوله في حماسيته الملهبة التي يخاطب فيها نفسه
بقوله :

أقول لها وقد طارت شعاعاً	من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز	فيطوى عن أخى الخنع البراع
سبيل الموت غاية كل حى	فداعيه لأهل الأضن داعى
ومن لا يُعْتَبَطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَم	وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة	إذا ما عُذَّ من سقط المتاع
والقطعة تفيض ببسالة قوية لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ولا تردداً	
ولا إحجاماً ، وهو يصور فيها نفسه في المأزق الضنك حين لا يبقى من	
الموت مفر ، فتلهع النفوس وتجزع ، أما هو فلا ينكص ، بل يظل	

يقتحم أهوال الحرب مخاطراً مخاطرة جريئة بنفسه . وإنه ليدعوها أن
تظل صلبة قوية ، ومم تخاف ؟ أمن الموت ؟ وهل يموت أحد إلا
وقد بلغ أجله الذى قدر له فى أم الكتاب ؟ إن الجبن لا يطيل
أجلاً ولا يؤخر إنساناً يوماً عن يومه الموعود ، وإنه لحرى بكل إنسان
أن يصبر فى الحرب حتى الموت ، وحتى لا يلحقه عار الفرار والاستسلام
المهين ، وكل الناس ميتون ولن يخلد أحد ، وهل الحياة باقية ، حتى يحاول
إنسان أن يستطيلها ويستبقها ؟ وفيما الحرص عليها ، وهى حياة بغیضة
ثقيلة ؟ إن الناس جميعاً سيموتون ويأتى الموت على كل الأحياء ، ومن
لا يعتبط أو بعارة أخرى من لم يمت فى عنقوان شبابه مات هراً قد
سُم الحياة حتى ليريد أن يخلص منها ويستريح .

وإننا لنأسى لبطولة هؤلاء الخوارج إذ أنفقوها فى حرب إخوانهم فى الدين ،
وكان حرياً بهم أن ينفقوها فى حرب أعدائهم الحقيقيين من الأمم الأجنبية ،
إذن لما انقسم العرب فى أوائل أمرهم صفوفاً تتناحروا وتتقاتل ويسفك بعضها دماء
بعض ، ولظلوا مقبلين على فتوحهم ، ففتحوا بقية العالم ، وتغير وجه التاريخ .

في الحروب مع الروم

سحق العرب في عهد أبي بكر وعمر وعثمان الروم سحقاً ذريعاً اضطهرهم إلى أن يرفعوا أيديهم عن الشام ومصر ، وأخذوا يرفعونها عن إفريقية مكرهين مهزومين مقهورين ، حتى إذا ولي الأمويون تقدموا إلى المحيط الأطلسي وعبروا المضيق إلى إسبانيا حيث صهلت خيول فرسانهم على مشارفها الشمالية . وكان طبيعياً أن يعنى العرب منذ عصر عمر بن الخطاب ببناء أسطول يحمي ثغورهم الممتدة على البحر المتوسط ، وأخذ هذا الأسطول يجوب المياه الشامية والمصرية ، ودفعه معاوية إلى التغلغل في البحر ، ففتحت قبرص لسنة ثمان وعشرين للهجرة ، وفتحت رودس لسنة اثنتين وثلاثين ، وكسر تمثالها الضخم الذي كان يعد في العالم القديم إحدى عجائب الدنيا . ونشبت في البحر من إناجيسة الإسكندرية لسنة أربع وثلاثين موقعة ذات الصواري ، بين الأسطول العربي المصري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى مصر لعثمان والأسطول البيزنطي الرومي بقيادة إمبراطور بيزنطة قسطنطين بن هرقل ، وإنما سميت الموقعة بذات الصواري لكثرة ما كان بها من صواري المراكب ، وكانت عدتها ألفاً للبيزنطيين ، ومائتين للعرب ، وانتصر الأسطول العربي الحديث نصراً مؤزراً ، لم يعد البيزنطيون بعده يفكرون في غزو الشواطئ الشامية والمصرية والإفريقية . أما العرب فقد ظلت

قلاع أسطولهم وصواريه تنتشر في البحر المتوسط من حين إلى حين ، وظلوا يغيرون على الجزر الكثيرة المنتشرة فيه ويغنمون ويعودون ، على نحو ما صنع الأسطول المصري بصقلية لسنة تسع وأربعين ، وقد عادوا إلى رودس ففتحوها لسنة ثلاث وخمسين ، واستقروا بها حيناً من الدهر وظل الأسطول المصري يغزو ويروح على الجزر الصغيرة حتى إذا كانت سنة ٨١ للهجرة أرسى بسفنه على جزيرة قوصرة التي تبعد نحو ستين ميلاً من صقلية ، فاستولى عليها ، وكان ذلك إرهاباً لا ستيلاء العرب في القرن الثالث على الجزيرة الكبيرة .

وظل العرب منذ استيلائهم على الشام لعهد عمر بن الخطاب يغيرون على الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وكأنما كانت حركات أسطولهم إنما يراد بها أن تسند هذه الغارات وما يتصل بها من غزوات ، وكادت أن تكون سنوية في بعض الأحيان ، وغالباً ما كانت تحدث في الصيف لبرودة الجو في الشتاء ولا متلاء الطرق بالصقيع ، وكان الروم كثيراً ما يولون على وجوههم فارين حتى يصل الجيش العربي إلى الشاطئ المقابل لبيزنطة (القسطنطينية) ولا شيء يرد السيل العارم ، إلا أن يعود إلى منحدره ومصبه . ومن أهم الغزوات لعهد معاوية ، غزوة ابنه يزيد لسنة اثنين وخمسين ، إذ جهز له جيشاً اكتسح به آسيا الصغرى حتى بيزنطة ، وأعانه بأسطول مخر بحر مرمرة وأجاز بالجيش المضيق ، غير أن الأسوار المنيعة حالت بينه وبين اقتحام العاصمة ، وحدثت على أبوابها بعض مناوشات قتل فيها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ، فدفن بأصل السور المحيط ببيزنطة ، ويشن العرب من الفتح فقفلوا

راجعين . وربما كانت أكبر غزوة للقسطنطينية في العصر الأموي غزوة مسلمة بن عبد الملك بن مروان لها في سنة ثمان وتسعين ، إذ وجهه أخوه سليمان إليها في جيش كثيف تدعمه حملة بحرية ، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها ، فحاصرها حصاراً طويلاً ، شتاء فيه وصاف ، قاهراً أهلها قهراً شديداً ، غير أنه عاد فرفع الحصار حين بلغه نبأ وفاة أخيه ، وكأنما ذهبت أدراج الرياح أمانى الأمويين في الاستيلاء على بيزنطة عشوة فلم يعودوا إلى حصارها ومحاولة فتحها ، ولكنهم ظلوا يغزون في آسيا الصغرى ، ويقتطعون من أطرافها قرى ومدناً مثل طرسوس وقاليقلا وقيسارية ونحرشنة .

وفي كل ما أسلفنا من هذه الغزوات البرية والبحرية في الحقب الإسلامية الأولى كانت البطولة العربية تضطرم في نفوس الشجعان البسلاء ، يرفدها عتاد لا ينفذ من قوة النفس وصلابتها وعنادها وإحساسها العميق بكرامتها . وفي كل غزوة صغرى وكبرى كانت تلمع أسماء كثيرين ممن اشتهروا بالبأس الشديد ، ويكفي أن نذكر منهم بطلاً واحداً هو عبد الله البطال الذي كان على طلائع مسلمة بن عبد الملك ، وقد شهد غزواته وحروبه مع الروم جميعاً ، وأوطأهم خوفاً ورعباً وذلاً ، وكان يتلو دائماً : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وكان إذا حمى الوطيس يصرخ : أعن اللجنة تقعدون ؟ ثم يلتقي بنفسه في نحور الأعداء ، فلا يزال يشق رؤوسهم بالسيوف ، ولا يزال يطعنهم بالرمح مقاتلاً عن أصحابه ، ذائداً عن رفاقه . وعلى نحو ما كان يكثر من تقتيل البيزنطيين في المعارك كان يكثر من أسرهم ، ويقال إنه أسر قسطنطين

إمبراطورهم لسنة مائة وأربع عشرة ، وافقدوه بمال كثير . وما زال يذبح منهم كل عام وينحرق حتى كانت سنة مائة واثنين وعشرين للهجرة ، فانهزم الناس عنه في بعض المواقع وفروا لا يلوون ، وأبى إلا الثبات والإقدام ، وأخذ يدفع فرسه في استبسال ، وسمع عريشاً ، يقول : واعطشاه فصاح فيه : تقدم ، الرّى وإطفاء الظمأ أمامك ، وتكاثر عليه الروم ، فخرّ شهيداً . وقد طارت شهرة بطولته في العصور الإسلامية التالية ، ومع مر الزمن تكونت حول شجاعته أساطير كثيرة هيأت لتأليف قصص متعددة حوله تصور بسالته الحارقة ، زهى في جمهورها قصص شعبية .

وتظل الحروب بين العرب والروم قائمة على قدم وساق في العصر العباسي ، وتخبو قليلاً في عصر المنصور ، ثم تشتعل في عصر ابنه المهدي ، إذ يغير الروم في أوائل خلافته على سُميساط ، ويصمم على أن يكيلهم الصباع صاعين فيجرد لهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس ابن محمد ، ينكل بهم تنكيلاً شديداً ، وتتوالى تجهيزاته لهم وبعوثه ، حتى إذا كانت سنة مائة وثلاث وستين أعد لهم جيشاً كثيفاً جعل إمارته لابنه الرشيد واختار لمعاونته طائفة من كبار القواد فأنزل بهم خسائر جسيمة . وفي السنة التالية توغل الرشيد في آسيا الصغرى ، وافتتح عدة حصون ومضى حتى بلغ مضيق القسطنطينية ، غانماً ما لا يكاد يحصى من الدواب والسلاح ، واستنقذ من الأعداء كثيرين من أسرى قومه ، وقتل من العدو نحو خمسين ألفاً ، مما اضطر إمبراطور بيزنطة أن يتعهد لمدة ثلاث سنين بأداء الجزية كل عام : سبعين ألف دينار ، واستلاً قلبه وقلوب شيعته من الهول والفرع . ويتوفى المهدي فينقض نقفور



إمبراطور بيزنطة العهود ، فقد تولى الخلافة الرشيد وظن ظناً فاثلاً أنه لا يبلغ من الحزم مبلغ أبيه ، فكتب إليه مطالباً برد ما أداه من جزية في السنين الماضية ، وما إن يفض الرشيد الكتاب حتى يملأه الغضب فيكتب إليه على ظهره : «بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام » وسار إليه في سنة ثمان وثمانين ومائة ، فالتقى الجمعان ، وجرح نقفور ثلاث جراحات ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة بلغت أربعين ألفاً . وفي سنة مائة وتسعين عاد إليه في جيش جرار بلغ تعداده مائة وخمسة وثلاثين ألفاً غير المتطوعين ، فاخترق آسيا الصغرى ، وسبي سبياً كثيراً وغنم مالا يحصى من الغنائم وافتتح هرقة إحدى مدنها الكبرى وخرّبها . وهال ذلك نقفور ، فتعهد أن يؤدي الجزية صاغراً . ونقض أهل قبرص عهدهم فغزاهم الرشيد وردهم إلى الطاعة . وقد تغنى الشعراء طويلاً بانتصاراته على نقفور والروم وفتح هرقة ، من مثل قول أشجع السلمي :

برقت سماءك في العدو وأمطرتُ هاماً لها ظلُّ السيوف غمامُ
رأى الإمام وعزمه وحسامه جُنْدٌ وراء المسلمين قيامُ
وصلت يداك السيف حين تعطلت

أيدى الرجال وزلت الأقدام
وعلاً عدوك يابن عم محمد رَصْدان : ضوء الصُّبْح والإِظْلَامُ
وإذا تنبه رُعْتُهُ وإذا غَفَا سَلَّت عليه سيوفك الأَحْلَامُ

ويقال إن الرشيد أهتز حين بلغ أشجع هذا البيت في القصيدة ،
وأمر بأن ينثر عليه الدر استحساناً وإعجاباً ، فقد عرف كيف يجسم
ما أنزله بالروم ونقفور من الرعب الهائل ، وفي الوقت نفسه صور إقدامه
وحزمه وبأسه ونفاذ بصيرته وشدة شكيمته ، وكيف جعل أعداءه لا يفلتون
من الخوف صباح مساء ، بل إن فرائصهم لترعد دائماً ، لما يرون في مجال
الحرب من الرءوس المتطايرة والدماء المسفوحة السائلة .

ويدور الزمن دورة ، وإذا بنا في العقد الثاني من القرن الثاني
الهجري ، وإذا المأمون يعلم أن تيوفيل إمبراطور بيزنطة يضع يده في
يد بابك الثائر على الخلافة بأذربيجان ، ويملؤه السخط والغضب ، فيأخذ
منذ سنة مائتين وخمس عشرة يقود جيوشاً جرارة يهبط بها على آسيا
الصغرى يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم وابنه العباس ونخالد بن
يزيد الشيباني وجعفر الخياط وعجيف بن عنبسة ، ونزل على أنطاكية
والمصيصة وطرسوس ، ووجه ابنه العباس بطائفة من الكتائب إلى
ملطية ، أما هو فاتجه بجيشه شمالاً إلى المطامير واستولى على حصون كثيرة
مثل قره وسندس وسانان بالقرب من هرقة . وعاد المأمون مظفراً إلى
دمشق وبغداد ، وظن تيوفيل أن الفرصة سانحة للانتقامه من تلك الغارات
العنيفة على بلاده ، فأغار على طرسوس والمصيصة ، وقتل من أهلها مقتلة
عظيمة ، وبالمثل صنع بخرشنة ، وأسر كثيرين من المسلمين ، وعاد إلى
القسطنطينية مبتهجاً ، واستقبل استقبالاً حافلاً . وعلم المأمون بغارته
فاستشاط غضباً ، وأسرع بجيش لسنة مائتين وست عشرة ، فاكسح
به الجنوب الغربي لآسيا الصغرى ، وكان الروم قد استردوا هرقة ،

ولم يكد جيشه يطل عليها حتى خرج إليه أهلها طائعين مدعين ،
وانساح الجيش في إقليم المطامير ، والتقى أخيراً بتيوفيل وجيشه فهزمه
هزيمة ساحقة ولى على إثرها الأدبار مخلفاً وراءه غنائم كثيرة . وعاد
المأمون بجيشه المنتصر إلى دمشق ومنها اتجه إلى مصر في أوائل سنة مائتين
وسبع عشرة لقمع ثورة بها ، وسرعان ما انقمعت واستقرت الأحوال ،
وعاد مسرعاً إلى الحدود الرومية الشامية ، فاجتازها ونزل قرب أدنة ،
وتقدم الجيش أو كتائب منه إلى حصن لؤلؤة ، غير أن تيوفيل فر منه
وأبعد في الفرار ، فعاد أدراجه دون قتال ، ودون استيلاء على حصون
سوى ما كان من تسليم حصن لؤلؤة وسكانه . وفي السنة التالية جهز
المأمون جيشاً ضخماً لقتال البيزنطيين ، ونزل به في أرض الروم بموضع
أونهير يسمى : البُندنون ، وارتعدت فرائص الإمبراطور ، فأرسل إليه
يخبره نظير عودته بجيشه دون قتال ، إما أن يقبل أخذ نفقات جيشه وعتاده
وإما أن يقبل فك الأسرى من المسلمين دون فداء ، وإما أن يقبل أن
يصلح ما أفسد قومه من ثغور المسلمين على نفقته . وعنف المأمون بالرسول
ورده رداً غليظاً ، وتقدمت كتائب تستولى على بعض الحصون ، وسرعان
ما لى نداء ربه ، فنقل نجمانه إلى طرسوس . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أكبر
شاعر تغنى ببطولته وبطولة جيشه وكتائبه وقواده في تلك الحروب المظفرة
هو أبو تمام ، وله يقول في إحدى مدائحه :

مسترسلون إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحامُ
آسادُ موت مُخَدَّراتُ مالها إلا الصوارمُ والقنا آجامُ
حتى نَقَضْتَ الروم منك بوقعة شنعاء ليس لنقضها إبرامُ

وَقَصَّ مَتَّ عُرْوَةً جَمْعَهُمْ فِيهَا وَقَدْ جَعَلْتَ تَفْصِيْمَ عَنْ عُرَاهَا الْهَامُ

وهو يشير في القصيدة إلى أن المأمون في حروبه مع البيزنطيين يصادر عن شعور عميق بنصرة الدين الحنيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استعلاء وشراسة وحدة . ويقول إنه يقود جيشاً كثيفاً ، موقناً بدينه ونصره مقدماً لا يلوى على إحجام ، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرحاما متواصلة ، بل لكأنهم جميعاً آساد غاباتها وأجماتها السيوف والرماح ، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كأنما لم يعد من الممكن أن ينقضوا هذا النصر المبين الذي قصم ظهورهم ونثر رؤوسهم وسحقهم سحقاً .

وتولى الخلافة بعد المأمون أخوه المعتصم ، وكان يصحبه معه في حروبه للروم ، وله فيهم غارات وانتصارات مجيدة ، وبمجرد أن ولي الخلافة أخذ يعنى بجيشه ، فأكثر فيه من المماليك الترك ذوى البأس ، واتخذ لهم معسكراً بعياداً عن بغداد في سامراء ، وجعلها حاضرة له ، وسرعان ما أصبحت مدينة ضخمة . ولم يلبث جيشه أن قضى على بابك وثورته في أذربيجان قضاء مبرماً ، ويقال إن المعتصم كان من أشد معاصريه قوة وإنه جعل يد رجل بين إصبعين من أصابعه فحطمها حطماً . وبينما كان جنده يضيقون الخناق على بابك وجموعه في أذربيجان تراسل مع تيوفيل ، ممنيا له الأمان في الانتصار على المعتصم ، لانشغال جيشه وقواده بحربه ، ولكى يزيده إغراء أرسل إليه طائفة من جنوده ، ولم تواف سنة مائتين وثلاث وعشرين حتى جهز تيوفيل جيشاً جراراً من مائة ألف مقاتل ، واتجه به إلى أعالي الفرات آملاً في الاتصال بثائر

أذربيجان وأصحابه ، وسرعان ما سلمت له ملطية ، وقاومت زبطرة الواقعة في جنوبها الغربي ، فرميت بالمجانيق وقتل أهلها وسبي نساؤها وأطفالها ، وصاحت امرأة والروم يحرقونها في الأغلال : وامعتصماه ! مستغيثة بالخليفة مستنجدة . وبلغته استغاثتها وهو ببغداد ، فصاح : لبيك لبيك ! وأمرتوا بالنفير للحرب ، فاجتمع له قواده العظام من أمثال محمد بن يوسف الثغري الطائي وأشناس وجعفر بن دينار والأفشين وعجيف ابن عنبسة ، وأخذ في تجهيز جيشه بالزاد والسلاح ، وعبأه ، ثم ركب فرسه في مقدمته وكان قد سأل أي بلاد الروم أمنع ؟ ف قيل له عمورية فنقش اسمها على التروس والألوية ، وتنبأ بعض المنجمين بإخفاق الحملة فلم يعرف تنبؤهم أي اهتمام ، ومضى مسرعاً يريد الانتقام من الروم وردعهم . ونزل بالقرب من طرسوس ، وقسم جيشه حتى يطوقهم من جهات مختلفة ، وجعل الغاية أنقرة في الشمال الشرقي لعمورية ، ومضت أقسام الجيش وكراديسه منزلة بتيوفيل وجنوده هزائم ساحقة ، والتقت في أنقرة ونحربتها ودمرتها تدميراً ، ثم اتجهت إلى عمورية ، فحاصرتها خمسة عشر يوماً ، وظلت ترمي أسوارها وأبراجها بالمجانيق حتى حرقها وهدمتها . واستئثس من بقي بها من الجند والقادة فاستسلموا بعد قتال مرير ، باغ قتلاهم فيه تسعين ألفاً . وتفرقت كتائب المعتصم وكراديس جيشه في آسيا الصغرى تستبيح مدن الروم وتسبي نساءهم وتأسر رجالهم وتضع في أيديهم وأرجلهم الأغلال والقيود وتوطئهم ذلاً وصغاراً ورعباً ، غير ما أخذت من الغنائم التي لا تكاد تحصر . وكان فتحاً مبيناً أفاءه الله على المعتصم والعرب ، مما جعل الشعراء

يهتفون به ملوحين بأيديهم وأشعارهم في وجوه الروم طويلاً ، وأبو عام
أكبر شاعر سجل هذا الفتح ، بل لقد حول تسجيله له إلى ملحمة
الرائعة التي يستهلها بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وهو بذلك يعلن أن القوة فوق العقل ، وهل يمكن لعقل أمة أن
يأخذ حظه من الحياة والازدهار دون قوة ترعاه وتسندة . وقد مضى
يتهمكم بنبروة المنجمين ، ذاهباً إلى أن العلم الصادق إنما هو في لوامع
السيوف لا لوامع النجوم والكتب ، وأخذ يشيد بالانتصار العظيم في
عمورية ، مجسماً ما حدث لها من حريق تعالت نيرانه وترامت في الآفاق
حتى كأن الظلام رغب عن لون ردائه الأسود ، أو كأن الشمس لا تزال
ساطعة. ويجسد أبو تمام بطولة المعتصم وما يدلع في قلوب الروم من الهول
والفرع ، فيقول :

لم يَغْزُ قوماً ولم ينهض إلى بلدٍ إلا تقدّمه جيش من الرُّعْدِ
لو لم يقد جحفاً ل يوم الوغى لغداً من نفسه وحدها في جفلى لجحِب

فدائماً يسبق جيشه الحربي إلى بلاد العدو جيش نفسي من الخوف
والرغب ، ويفكر في صلابة المعتصم وشجاعته التي لا تعرف ضعفاً
ولا خوراً ، وإنما تعرف المضاء والتصميم والقوة التي تهدد كل ما تلقاه
وتعرضه للخطر ، حتى لكان المعتصم وحده جيش جرار ، ويحيى فيه
نجدته للمرأة الزبطرية قائلاً :

لَبَّيْتُ صَوْتًا زَبَطْرِيًّا أَرَقَّتْ لَهُ كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ

فهو قد لبَّى صوتها ودعائها نافضاً عن عينيه النوم حتى ينتقم لها ،
ورافضاً رضاب الغيد الحسان حتى يسترد شرفه مهما تجشم من الأهوال
وتحمل من الخطوب . ويمضى فيتحدث عن المعركة وما كان بها من
عراك وجلاد وقاتل ودماء سالت أنهاراً ، وتوفيل يهرب من مكان إلى مكان
ومن أكمة إلى أكمة ، يطلب النجاة من أسد الشرى . ويحتم أبو تمام
قصيدته بل ملحمة الموازنة بين يوم عمورية ويوم بدر ، فإذا كان اليوم
الآخر موقعة فاصلة بين الشرك والإسلام فإن يوم عمورية بدوره موقعة
فاصلة بين الروم والعرب ولن تقوم لهم من بعده قائمة ، وستظل وجوههم
يغشاها الذل والهوان .

وحتى الآن لم نعرض لبطولات الأسطول العربي وقادته الذين أمسوا
شواطئ الشام ومصر وإفريقية في العصر العباسي ، وكان هذا الأسطول
لا يزال يبحر عباب البحر المتوسط ، وقد نشر ألويته ، وهو تارة يرسى
على هذه الجزيرة ، وتارة يغير على تلك ، وماتوا في سنة مائتين واثنى
عشرة ، حتى يستولى العرب على جزيرة كريت وتصبح خالصة لهم ،
وبعد نحو خمس عشرة سنة ينزلون عن صقلية علم البيزنطيين ويرتفع
مكانه العلم العربي بعد جهود عنيفة ظلت نحو عشرة أعوام متعاقبة .
وفي هذه الأثناء كان الأسطول العربي العباسي يقطأ ، وقد رأى قائده
أحمد بن دينار من عيد الله أن يتجه به نحو بيزنطة لعله يلتقي بالأسطول

الرومي ، والتقى الأسطولان لسنة مائتين واثنين وثلاثين للهجرة في أوائل
 خلافة المتوكل ، ولم يلبث الأسطول الرومي أن دمر نهائياً وفر قائده هارباً ،
 ولم تسجل كتبنا التاريخية هذه المعركة البحرية وما أبلى فيها ابن دينار
 قائد البحر وإنما سجلها المؤرخون البيزنطيون ، وإن البحري الخليلق
 بالثناء حين سجل هذا المجد الحربي لابن دينار وأسطوله في إحدى مدائمه
 له ، وقد صورته يتقدم الأسطول ذات صباح في مركبه الميمون ،
 والأسطول يقوم بعرض بحري ، وبعض الملاحين يعتلون أبراج السفن ،
 والجنود يتأهبون للحرب وقد اصطفوا صفوفاً لتلقى الأوامر من الإشتيام
 أو بعبارة أخرى من أمير البحر ، ثم يأخذ البحري في وصف المعركة
 يقول :

غدوت على الميمون صبحاً وإنما	غداً الموكب الميمون تحت المظفر
إذا زمجر النوق فوق علاته	رأيت خطيباً في ذؤابة منبر
يغضون دون الإشتيام عيونهم	وفوق السباط للعظيم المؤمر
وحولك ركباً يولع للهول عاقروا	كئوس الردى من دارعين وحسّر
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم	ليقلع إلا عن شواء مقتّر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم	ضراب كإيقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كأن سفينه	سحائب صيف من جهام ومنمطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم	إذا اختلفت ترجيع عود مجر جر
تقارب من زحفهم فكأنما	تولّف من أعناق وحش منفر

فما رِمَتْ حَتَّى أَجَلَّتِ الحَرْبُ عَنْ طُلَى

مُقَطَّعةً فيهم وهام مطير
على حين لَانَقَعَ يطوِّحه الصَّبَا ولا أرض تُلفَى للصريع المقطر

وواضح أن البحري في الأبيات الثلاثة الأولى يصور استعراض ابن دينار لأسطوله ولحركته البحرية وإعداده للمعركة الحاسمة ويمضي في وصفها ، فيقول إن جنود الأسطول العربي مدرَّبون على القتال في البحر : الدارعين منهم وغير الدارعين ؛ ودائماً ينشطون في رشق قذائف النار التي تحيل كل ما تمسه إلى ما يشبه لحمًا مشويًا طلاه سواد القنار أو الدخان . وسرعان ما نشبت المعركة بينهم وبين الروم صهب العثانين أو بعبارة أخرى حمر اللحي ، وقد صوبوا عليهم قذائفهم المحرقة ، والبحر يزجر زججرة عود مجرجر أو بعبارة أخرى زججرة بعير يهادر بصوته . وقد تقارب الزحفان العربي والرومي بل التحما التحام وحوش كاسرة متنافرة . ويقول إن ابن دينار مازال يشعل الحمية في قلوب جنوده حتى محقوا الروم وحتى أجلت الحرب وتكشفت عن طُلَى أو أعناق مقطعة ورءوس مطيَّرة متناثرة . وهي معركة في البحر لا يرتفع فيها الغبار كما يرتفع في معارك البر ، ولا يترامى الصرعى فيها على الأرض بل يغورون في المياه إلى غير مآب .

ونمضي إلى القرن الرابع الهجري وملتقى فيه بسيف الدولة الحمداني أمير حلب ، وهو أعظم بطل عربي تألق نجمه في سماء الحروب الرومية ، إذ تحول بجنوده إلى ما يشبه سدًّا ضخماً يصد سيل الروم . بل لقد تحول

إلى ما يشبه صحرة عاتية تعظم عليها غاراتهم وحمالاتهم ، بل إنه
حول ديارهم وأوديتهم إلى حرائق تسيل من تحتها دماؤهم المسفوحة ،
وكأنما تجسدت في ضميره البطولة العربية بكل أمجادها الحربية ،
وأحسن المتنبي كأنما هو الأمل الذي ظلت تمخضه العصور للعرب وظلوا
يبعثون عنه طوال أيامهم ولياليهم ، أو قل أحسن كأنه منقذ أرسلته
العناية الإلهية ليرد عنهم عدوان المغيرين البيزنطيين في عصر خارت فيه
قوى الخلافة العباسية ولم يعد لها حول ولا طول ولا من القدرة شيء .
فهبط هذا البطل يذود عن الحمى والدمار ويدافع عن الديار ، بل لقد
مضى يغير على البيزنطيين ويتزل بهم هزائم ساحقة وهم يولولون ويندبون
ضارعين . ولم يكن له عون في هذا المجد الحربي الرائع سوى الرقعة
الصغيرة لحلب إمارته وما حوالها ، ومع ذلك ظل يقلم أظفار قواد بيزنطة
وجيوشها الجرارة ، وظالت سيوفه وسيوف جنوده البسلاء تسيل دماء
البيزنطيين أنهاراً . وكان طبيعياً أن تمتلئ ساحات حلب وأفنية قصوره
فيها بالشعراء الذين جاءوه من كل مكان ليشيدوا ببطولته وبطولة جنوده
ولم يلبث المتنبي أن قدم عليه ، وكان قد أعياه البحث عن بطل عربي
يرد عن العرب ظلم الحكام الأعاجم المتسلطين على الخلافة في بغداد ،
ويدفع عنهم ما يتعرضون له من غوائل العدوان ، وكأنما رأى في سيف
الدولة وبطشه بالروم من يحقق له أحلامه في البطولة العربية المفقودة ،
وكان هو نفسه فارساً مقداماً ، فأطال المقام عند البطل الحمداني
تسع سنوات طوالاً ، يرافقه في معاركه ، وعليه درعه وزرده ، وبيده
سيفه ، وفريسه يصهل ويلوح بعرفه . ويعود معه بعد كل معركة ؛

وقد امتلأ قلبه حماسة وبهجة بالنصر ، فينشده قصائده مصوراً بطولته وبطولة حشوده ، وهي ليست قصائد بالمعنى المألوف ، إنما هي أناشيد حربية تموج بصليل السيوف وحممة الخيول ، كما تموج بالحفيظة والحنق على أعداء العروبة البيزنطيين . وهي ليست أنشودة ولا أنشودتين إنما هي مجاميع كبيرة من أناشيد ، سهاها الأسلاف بالسيفيات نسبة إلى بطلها المغوار سيف الدولة . ولن نستطيع الوقوف عندها جميعاً ولذلك سنكتفي بالوقوف عند واحدة منها ؛ وهي التي نُظمت في معركة حصن الحَدَث أحد المنافذ إلى بلاد الروم ، وكان البيزنطيون قد خربوه لسنة ثلثمائة وسبع وثلثين حتى لا يكون شوكة في ظهورهم ، فصمم سيف الدولة في سنة ثلثمائة وثلاث وأربعين على إعادة بنائه ، ووضع الأساس بيده ، وبينما هو قائم على هذا البناء إذا القائد الرومي برداس فوكاس يرميه بجيش عداده خمسون ألفاً ، ولم يكن مع سيف الدولة سوى بضعة مئات من فرسانه ، واحتدمت المعركة ، وغلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة ، بل لقد دمرتها تدميراً إذ سقط في الميدان ثلاثة آلاف من الروم ، ووقع كثير من البطارقة أسرى وكان ممن سفك دمه ابن بنت برداس وصهره ، أما هو ففرّ بجلده . وكان المتنبي مرافقاً لسيف الدولة ، وأبلى في المعركة بلاء حسناً ، حتى إذا انتهت نهايتها المظفرة الرائعة وقف بين يدي سيف الدولة ينشد هذه القصيدة : وقد بلغ فيها الذروة في التعبير عن بطولة سيف الدولة وكما ته الشجعان وإحساس العرب العميق بالعداء المستعرب بينهم وبين الروم يقول في فواتحها :

يَكْلَفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ
 وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْخَضَارُ
 يَفْدَى أَتَمُّ الطَّيْرِ عَمراً سِلَاحَهُ
 نَسُورُ الْمَلَأَ أَحْدَانُهَا وَالْقَشَاعُ
 وَمَا ضَرَّهَا خَلَقٌ بغيرِ مَخَالِبٍ
 وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ
 هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا
 وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيينَ الْغَمَائِمُ
 سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُّ قَبْلَ نَزْوِهِ
 فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَاجِمُ
 وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجَنُونِ فَأَصْبَحَتْ
 وَمِنْ جُثَّتِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

والمتنبى يعجب من تكليف سيف الدولة لكتائبه الصغيرة أن
 تنهض بهمة في الحرب ، وهي همة أعظم من أن تنهض بها الجيوش
 الضخمة ، ومع ذلك فإن جيشه القليل يحقق دائماً من الانتصارات
 ما يهول ويروع ، ويقول إن نسور الملا صغارها وقشاعها أو
 عظامها تفديه بأرواحها لما يخلف لها دائماً في المعارك من الأشلاء ،
 ويقول لو أنها خلقت بدون مخالب قوية تفرس بها صيدها من بغاث
 الطير ماضرها ذلك ، لأن رماح سيف الدولة تبلغها ما تريد وتقدم

لها ما تطلب من القوت والمثونة . ويتساءل المتنبي هل اللون الأحمر الذي
كسا قلعة الحدث تعرفه وتعرف مصدره من دماء الروم التي لطخت حوائطها
بلونها القاني ؟ وهل تعلم أي الساقين سقاها : الغمام أم الجماجم ؟
ويقول إن السحاب جادها قبل حلول سيف الدولة ، فلما حل بها
سقاها من دماء الأعداء ما شفاها مما كانوا أصابوها به من غارات وجراح .
ويقول إنه كان بها ما يشبه الجنون ، فأعازها سيف الدولة بتأثم كثيرة
من قتلى الروم أذهبت عنها العلة ، فسكنت وعاد إليها عقلها السليب .
ويأخذ في تصوير جيش الروم وعدده وأسلحته وعديده وتلاقي زحفه
مع زحف سيف الدولة ، وأصحابه ، يقول :

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهَنَ قَوَائِمُ
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابَهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعِمَائِمُ
نَحْمِيسُ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ

وفي أَذُنِ النُّجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لُحْنٍ وَأَمَّةٍ فَمَا تُفْهَمُ التَّحْدِثَاتُ إِلَّا التَّرَاجِمُ
فَلِلَّهِ وَقْتُ ذَوْبِ الْغَيْشِ نَارُهُ فَلَمْ يَبْقِ إِلَّا ضَبَارِمُ أَوْ ضَبَارِمُ
تَقَطَّعَ مَا لَا يَقْطَعُ الدَّرْعَ وَالْقَنَا وَفَرَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يَصَادُ
وَالْمُتَنَبِّيُ بِصُورِ فَرَسَانِ الرُّومِ يَثْقُلُهُمْ مَا يَلْبَسُونَهُ وَتَلْبِسُهُ خَيْلُهُمْ مِنْ
الْحَدِيدِ وَالْفُؤْلَازِ ، فَعَلَى رَعْوَسِهِمُ الْخَوْذُ ، وَعَلَى أَجْسَادِهِمُ الدَّرُوعُ
وَفِي أَيْدِيهِمُ التُّرُوسُ الضَّخْمَةُ ، وَعَلَى الْخَيْلِ السَّرُوجُ وَالْحَدِيدُ الْمَصْفُوحُ
الَّذِي لَا تَكَادُ تَبِينُ مِنْهُ قَوَائِمُهَا ، وَكُلُّ هَذَا الْحَدِيدِ يَلْمَعُ تَحْتَ الشَّمْسِ

فلا يكاد الإنسان يميز بين سيوفهم وما يلبسونه : إذ كل ذلك حديد يلمع ويبرق . ويقول إن خيسهم أو جيشهم ملاً بكثرته الآفاق شرقاً وغرباً حين أخذ يزحف للمعركة ، كما ملاًها بعجيجه وضجيجه حتى لكأنما زمازمه أو أصواته بلغت عنان السماء وارتفعت إلى أذن الجوزاء وهي أصوات أخلاط من البيزنطيين ومن وراءهم من الأوربيين : أصوات مستعجمة متناكرة فيما بينها فما يتفاهم المتحدثون منهم إلا بترجمين ينقلون عنهم . ويقول عجباً : لله يوم هذه المعركة : فقد محا تمويه من يتظاهرون بالبطولة والفروسية ، وكأنه نار صهرت التمويه والغش والخداع فلم يبق ولم يثبت سوى الصارم أو السيف القاطع والضبارم أو الأسد الشجاع ، أما السيف الكليل فقد تقطع وأما الجبان فقد ولّى الأدبار . ومضى المتنبي يصور سيف الدولة وبسالته في جحيم المعركة ، وهو يشهد بقلب ثابت الانتصار العظيم وهزيمة العدو أمامه ، وخيله تلحق به في ذرى الجبال طاعنة فاتكة نائرة جثته وأشلاءه ، يقول :

وقفت وما في الموت شكُّ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطال كلِّمى هزيمةً ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسمُ
ضممت جناحيهم على القلب ضمةً

تموت الخوافى تحتها والقوادمُ
بضربٍ أتى الهاماتِ والنَّصرُ غائبُ
وصار إلى اللَّباتِ والنَّصرُ قادمُ

حَقَرَتْ الرُّدَيْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا
وَحَتَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرَّمَحِ شَاتِمٌ
وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مِفَاتِيحُهُ الْبَيْضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ
نَشْرَتُهُمْ فَوْقَ الْأُحْيَدِ نَثْرَةٌ كَمَا نَشْرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ
تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الذُّرَى

وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ
تَظُنُّ فِرَاحُ الْفُتُوحِ أَنَّكَ زَرْتَهَا بِأُمَامَتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ
إِذَا زَلَقْتَ مَشْيَتَهَا بِبَطُونِهَا كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ
وَهُوَ تَصْوِيرُ رَائِعٍ لِبَطُولَةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَنَّهُ كَانَ يَمْتَلِكُ أَعْظَمَ مَعَانِي
الْبَسَالَةِ الْحَرْبِيَّةِ وَأَرْفَعَهَا ، فَقَدْ مَثَلَهُ الْمُنْبِيُّ لَا يَهَابُ الْمَوْتَ وَلَا يَرْهَبُهُ فِي
أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ وَأَخْطَرِهَا تَعَرُّضاً لَهُ ، وَقَالَ إِنَّهُ دَائِمًا يَقْتَحِمُ مَوَاضِعَهُ مَخَاطَرًا
بِرُوحِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَوْتَ يَعْرِضُ عَنْهُ حَتَّى لَكَأَنَّهُ لَا يَبْصُرُهُ ، بَلْ كَأَنَّهُ
يَغْفُلُ عَنْهُ بِنَوْمِهِ ، مَعَ أَنَّهُ فِي جَفْنِهِ وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِ مُحِيطٌ بِشَخْصِهِ ، لَكثَرَةِ
مَا يَزْجُ بِنَفْسِهِ فِي مَعَارِكِ الْقَتْلِ وَمَعَاظِبِهِ ، وَيَقُولُ الْمُنْبِيُّ إِنَّهُ بَلَغَ مِنْ جَلَادَةِ
سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي الْمَآزِقِ الْمُتَلَاخِمِ لِهَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الْخَطِيرَةِ أَنَّ كَانَ يَمْرُ بِهِ
أَبْطَالُ الرُّومِ جَرَحِي مَهْزُومِينَ مَدْحُورِينَ وَوَجْهَهُ لَا يَكْلَحُ وَلَا يَعْبَسُ ،
بَلْ يَسْتَبْشِرُ وَيَبْتَسِمُ وَاثِقًا بِالنَّصْرِ . وَيَصِفُ قُدْرَتَهُ الْحَرْبِيَّةَ ، فَيَقُولُ :
إِنَّهُ لَفِ جَنَاحِي جَيْشِ الرُّومِ عَلَى قَلْبِهِ لَفَةٌ مَنَكْرَةٌ شَدِيدَةٌ فِيهَا عَلَيْهِمْ شِدَّةٌ
صَادِقَةٌ ، فَإِذَا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ وَالْمُتَأَخِّرُونَ يَخْرُونَ صَرَخِي وَقَدْ صَوَّرَهُمْ

بالخوافى والقوادم فى جناحى الطائر وهى الريشات القصار والطوال
 كأنه لم يبق منهم باقية . ويقول إنه كان يطعنهم بضرب لا يصيب
 الرءوس فحسب ، بل يسقط فى النحور ، وكأنما كان النصر قد طال
 غيابه وأهلت تباشيره. ويستمر فى وصف بطولة سيف الدولة، فيقول :
 إنه طرح الرماح الردينية فلم يحارب بها : وحارب بالسيوف الماضية التى
 تعلوها بالطعن القريب المميت ، مما جعل السيوف تشعر بالاستعلاء
 على الرماح وتناولها بالتصغير والتهوين ، ويقول حقاً أن السيوف الخفيفة
 القاطعة هى التى تفتح أقفال النصر المغلقة . وكأنما تجسدت فى نفس
 المتنبي فرحته وفرحة سيف الدولة وفرسانه بهذا النصر الهائل ، فإذا هو
 يتصور تناثر جثث الروم وأشلاءهم على جبل الأحيدب بجوار مدينة
 الحدث عرساً لذلك المجد الحربى وزفافاً، وما الأشلاء والجثث إلا الدراهم
 التى تعود العرب فى أعراسهم أن ينثروها على العروس فرحين مبتهجين .
 ويقول إن خيول سيف الدولة كانت تصعد وراء المنهزمين فى ذرى
 الجبال تقتل فيهم ، حيث وكور النسور ، وكأنما تهدى إليها طعاماً
 وزاداً لا ينفد ، حتى لتظن فراخها الصغيرة أنك زرتها بأمهاتها ،
 لما تقدم إليها من أقواتها ، وأنت إنما زرتها بجيادك الكريمة القوية الصلبة
 التى تدربت على صعود الجبال ، حتى إذا تضعب السير عليها زحفت على
 بطونها كما تزحف الأفاعى فى المرتفعات. وعلى هذا النحو كان المتنبي
 يتغنى ببطولة سيف الدولة هذا الغناء الملهب الذى يشعل الحماسة فى
 نفس كل عربى ، وهو غناء صدر عن قلب شاعر عربى عاش بمجده
 البطولة العربية حتى إذا رآها مصورة فى شخص سيف الدولة وما ينزل

بالروم من الموت الفاتك أخذ يرتل تلك الأناشيد مديباً فيها كل ما ضم عليه جناحه من قوة وكل ما رآه في سيف الدولة من شجاعة وبأس شديد، وكأنما وهب نفسه لحرب الروم، فقد ظل يجالدهم ويصارعهم ويتزل بهم القتل المدمر والخزائم المنكرة، لا يصرفه عن ذلك شيء من مشتهيات الدنيا ومتاعها، فتاعه ومشتهاه جهاد الروم وما يحتمله في ذلك من العناء الشاق والجهد العنيف. ويحكى عنه أنه لم يكن يأبه لمجالس الأنس كمعادة الحكام في عصره، ولا نشغاله الدائم بتدبير الجيش وممارسة الحرب وأنه دعاه ذات ليلة بعض أقربائه للاستماع إلى الغناء من بعض المغنين البغداديين المشهورين الذين أُلوا بحلب حاضرتهم، فقال لداعيه: «أنا مشغول بقرع الخوافر عن المزاهر» وهي كلمة تلخص بطولته وأنه عاش كما قال المتنبي آنفاً يقف نفسه أمام الموت وقد فغرفاه، بل إنه ليقتنح عليه جفنه غير عابئ به، وكأنما قهره وغلبه وفرض عليه سلطانه، فسلطه على أعدائه. ويقال إنه غزا الروم أربعين غزوة، وقدر له أن يموت على فراشه حتف أنفه، وقد أوصى بأن يوضع خداه في قبره على لبنة جمعها مما علق بشيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم، لبنة طاهرة تشهد في لحده على بلائه في الجهاد وأنه لم تنتكس له راية، ولا تأبت عليه غاية.

وليس المتنبي وحده الذي نظم الأناشيد المدوية في بطولة سيف الدولة، فقد وفد عليه أكثر الشعراء النابيين في الشام والعراق يتغنون ببسالته من مثل الوأواء الدمشقي والسري الرفاء والناشي والزاهي والحالديين، وأنبه من هؤلاء جميعاً ابن عمه أبو فراس الحمداني الناشيء في حجره

وزوج أخته ورفيقه في حروبه ، وكان فارساً لا يجارى كما كان شاعراً لا يبارى . وحدث أن أغار الروم على حلب في سنة ثلثمائة وإحدى وخمسين غارة شعواء ، وانسلت منهم كتيبة أو كتائب إلى منبج في الطريق إلى حاضرة سيف الدولة ، وكان يتولاها أبو فراس فدافع دفاع الأبطال إلى أن أثخن بالجراح وأسره الروم ، وأخذوه إلى خرشنة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية ، وبقي في هذا الأسر نحو أربع سنوات ، وهو يكتب سيف الدولة ليسرع في فدائه حتى إذا كانت سنة ثلثمائة وخمس وخمسين خرج ثلاثة آلاف أسير إلى خرشنة ، اقتداهم جميعاً ابن عمه . وله أشعار كثيرة نظمها في هذا الأسر تسمى بالروميات ، وهي تفيض بالحنين إلى أمه وأهله ووطنه ، كما تفيض بالجلد والحماسة والقوة وكأنه صخرة تنفتت عليها الأحداث والخطوب مهما تكن مريرة ، ومهما تكن غصصاً وشجى في الخلق ، وربما كانت خير قصيدة تصور هذه البطولة النفسية رائيته ، وفيها يقول :

وَإِنِّي لَجَرَّارٌ لِّكُلِّ كَتِيبَةٍ مَّعُودَةٍ أَلَّا يُنْخِلَ بِهَا النَّصْرُ
أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ لِّدَى الْوَعَى
وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبُّهُ غَمْرٌ
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى أَمْرِي فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرٌ
يَمْنُونُ أَنَّ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَى ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرٌ
وَقَائِمٌ سِنِي فِيهِمْ أُنْدَقٌ نَصْلُهُ وَأَعْقَابُ رَمَحِي فِيهِمْ حُطْمُ الصَّدْرِ
سَيِّدُ كَرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ

ونحن أناس لا توسط. عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسنة لم يغلبها المهر

وأبو فراس يصور نفسه قائداً مقدماً يقود الجحافل الجارية إلى النصر
ويدافع حمية عن أسره ، فقد أسره العدو بغتة ، وإنه لمن قوم شجعان
يستبسلون في القتال والتزال ، وهو نفسه بطل ، بل فارس له فرسه
القارح ، وله نباهته بين الفرسان ، فهو ليس غمراً مغموراً أو مجهولاً ،
بل هو فارس مشهور ، ولكن لا دافع للقضاء النازل . ويلتفت إلى الروم
وهم يمنون عليه بأنهم لم يخلعوا عنه ثيابه إكراماً له ، فيقول وقد أخذته
الأنفة والعزة إن ما على ثيابي من حمرة تلطخها إنما هي خضاب
من دماهم ، وكم اندقت في قلوبهم وأجسادهم ورؤوسهم نصول
سيوفه ، وكم تحطمت في صدورهم صدور رماحه . ويقول إن
قومه سيذكرونه بل سيفتقدونه حين ينزلون الروم ويحمي الوطيس على
نحو ما يفتقد الناس البدر في الليلة الظلماء . ويقول إننا أناس تعمقنا
الشعور بالكرامة والاعتداد بالنفس ، إما الصدر وإما القبر ، وإننا
لنبذل نفوسنا في سبيل المحامد راضين شأننا شأن من يخطب الحسنة
فإنه يبذل في سبيلها أي مهر وأي صداق ، وفرق بعيد بين بذل المال
وبذل الروح الغالية .

وكانت هناك بطولات أخرى في المغرب العربي : في إفريقية
والأندلس ، فنذ وضع العرب أقدامهم هناك وهم في صراع مع أعدائهم ،
وأحسوا أنه لا بد لهم من أساطيل تحمي شواطئهم . ولا نكاد نمضي في

القرن الرابع حتى نجد عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس يعنى ببناء أسطول ضخم ، ونافسه فى ذلك الفاطميون منذ ظهوروا فى المهدية بالقرب من القيروان بتونس ، فقد مضوا يعزّون ببناء أسطول لهم وإعداده حتى لا يأخذهم الروم على غرة ، وكان لهذا الأسطول أثر كبير فى فرض سلطانهم على المغرب الإفریقی أولاً ثم فى امتداد هذا السلطان إلى مصر ثانياً . ويتولى الخلافة المعز فاتح مصر ومؤسس القاهرة ، ويقدم عليه من قرطبة ابن هانىء الأندلسى وهو لا يزال فى المهدية ، فيستخلصه لنفسه ، ويصبح شاعره الذى يشيد بكل أعماله ، ويرى أسطوله ، فينظم قصيدة طويلة فى وصفه ، وفيها يقول :

أما والجوارى المنشآت التى سرت
لقد ظاهرتها عُدَّةٌ وعديدُ
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها
عليها غمامٌ مكفهرٌ صبيرُهُ
من القادحات النار تضرم للصلى
فليس لها يوم اللقاء خمودُ

إذا زفرت غيظاً ترامت بمارجٍ
فأفواههن الحاميات صواعقُ
كما شُبَّ من نار الجحيم وقود
لها شعلٌ فوق الغمار كأنها
وأنفاسهن الزايفرات حديد

وليس لها إلا الرياحَ أَعِنَّةٌ وليس لها إلا الحجابَ كَدِيدُ

وواضح أن ابن هاني يفتتح أبياته مقسماً بسفن هذا الأسطول الذي تغمره المهابة والجلالة قائلاً إن عليها عدة ضخمة من السلاح وعديداً ضخماً من الجنود ، ويقول إنها بكثرتها وبموكبها الرائع في البحر المتوسط وهي تنشر أعلامها وقلاعها وسحب دخانها وبروقها اللامعة ورعودها القاصفة قد ألقت القزع في قلب ملك الروم . وإنها لمن قاذحات النار الحامية التي تشوى الوجوه والتي تظلم مشتعلة أعظم اشتعال يوم اللقاء ، قاذفة بالحمم والشعل لا تفر ، وكأنما يداخلها غيظ وحنق ملتهب حتى وكأنها نار الجحيم التي تغلي كالمهل . وإنها لتلفظ النار صواعق ترسلها على العدو حتى تأتي عليه ، وإن أنفاسها لمقامع ملتهبة من حديد ، وإن شعلها المحمرة لتساقط على المياه وكأنها دماء تتساقط على ملاحف سود ، ملاحف الماء في الليالي الداجية . وإنها لتعدو بسرعة ، وكأنها نخيل تعدو على أرض صلبة وبأيدي فرسانها أعننتها يحثونها على العدو السريع ، ولا أعنة ولا نخيل ولا أرض صلبة أو كديد ، إنما هي الرياح تدفعها هذا الدفع الحثيث .

في الحروب الصليبية والمغولية

لا نكاد نبغ أواخر القرن الخامس الهجرى حتى تدوى في أوربا الغربية صيحات البابا إيربان الثانى بإشعال الحروب الصليبية لاستخلاص الديار المقدسة من أيدي المسلمين ، وترددت مع صيحاته صيحات القسس في كل مكان وانعقد مجمع كليرمونت المشهور وفيه منحت صكوك الغفران لكل من يحمل الصليب وينهض لتخليص بيت المقدس ، واستجاب الأوروبيون من كل قطر من شمالي أوربا إلى جنوبها ، من الدانمارك إلى إيطاليا ، ملين هذه الصيحات للاشتراك في الحروب الصليبية يتقدمهم كثير من الأمراء مثل جودفرى دوق اللورين الأدنى وأخوه بلدوين وبوهمند النورماندى الإيطالى وابن أخته تانكرد وريموند كونت تولوز بفرنسا ، وأخذت هذه السيول تنحدر إلى بيزنطة مكونة نحو مائة ألف مقاتل .

وبينما أوربا تتجمع هذا التجمع الضخم إذا البلاد العربية منقسمة على نفسها ، وإذا هى قد بلغت مدى بعيداً من الضعف والانحلال ، وكان أكثر الشاطى الشامى بيد الفاطميين حكام مصر ، وكانت دولتهم قد أخذت تتردى في تدهور خطير ، وكان قسم كبير من ديار الشام يتبع السلاجقة حكام العراق وإيران ، وكانوا قد أقبلوا من خراسان منذ أكثر من قرن ومدوا سلطانهم على آسيا الصغرى ،

ولم يلبثوا أن استحدثوا نظام الأتابكة وهو أن يكون مع كل حاكم منهم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدبر أمر بلده ، وسرعان ما ازداد نفوذ هؤلاء الأتابكة وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين ، وبذلك تفككت أوصال الدولة السلجوقية الضخمة وتفتت قوتها العظيمة .

فلما جاء الصليبيون يجمعوهم الحاشدة لم يجدوا أمامهم قوات تبطش بهم فلا السلجوقيون محتفظون بكيانهم القوي القديم الذي أذلوا به بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ، ولا الفاطميون محتفظون بشيء من قوتهم القديمة يلقون به هذا الرباء الصليبي . ونزل الصليبيون آسيا الصغرى وأخذوا يستولون على حصون السلجوقيين دون مقاومة تذكر ، وتسلسل بلدوين إلى حوض الفرات الأوسط ، واستولى على الرها ، وسارت بقية السيل إلى الشام فاستولت على أنطاكية بعد مذبحة عظيمة ، وتوالت مذابح الأيدي الآثمة في البلدان والحصون حتى طرابلس . واتجه السيل إلى بيت المقدس وكان بيد مصر ، وجاهدت الحامية وأهلها جهاداً مستميتاً ، حتى لم يبق في القوس مترع ، ودخلها جودفرى وجنوده ، وسرعان ، ما أصبح للصليبيين أربع إمارات : الرها بيد بلدوين وأنطاكية بيد طنكرى (تانكرد) وطرابلس بيد ريموند وبيت المقدس بيد جودفرى ، ومات فخلفه أخوه بلدوين ، ففتح عكا وبيروت وصيدا . ولم يبق لمصر في الشاطئ الشامى سوى صور وعسقلان ، وبعد سنوات سقطت صور . وظلت مصر وأتابكة الشام يناوشونهم ، ولم تستطع قواهم المهيضة أن ترد السيل إلى قراره ، وبلغت القلوب الحناجر . وبينما الظلام يعم المنطقة إذا أتابك عظيم من أتابكة السلاجقة هو عماد الدين زنكى يتنبه

إلى أن الداء يكمن في تقطع البلدان المجاورة للصليبيين شيعاً ، وأنه لن تستأصل شأفتهم إلا إذا تجمعت قوى تلك البلدان في قبضة قائد حازم ، تسدّد لهم ضربات قاصمة. ولم يلبث أن ركز لواء سلطانه على الموضّل ثم بسطه على كثير من مدن الشام مثل حلب وحماة وحمص وبعبلبك ودمشق ، وأخذ يكيل للصليبيين ضربات قاضية مستولياً على كثير من الحصون ، حتى إذا كانت سنة خمسائة وتسع وثلاثين استولى على مدينة الرها بعد قتال مرير : وبذلك محار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون على الفرات ، وكان لذلك رنة فرح شملت جميع المسلمين يتقدمهم الشعراء الذين أخذوا يشيدون بهذا النصر المبين ملوحين بأيديهم في وجوه الصليبيين ، منذرين ومتوعدين على شاكلة قول شاعره ابن القيسراني :

هو السيف لا يُغنيك إلا جلاده وهل طوق الأملاك إلا نِجاده
سَمَت قِبْلَةً الإسلام فخرًا بطّوله

ولم يك يسمو الدين لولا عماده
فياظفراً عمّ البلاد صلاحه بمن كان قد عمّ البلاد فساده
غداة كأن الهام في كل قونيس كرائم نبت بالسيوف حصاده
فلا مُطلق إلا وشد وثاقه ولا مؤثّق إلا وحلّ صفاده
ولا منبر إلا ترنح عوده ولا مصحف إلا أنار امتداده
فقل للملوك الكفر تسليماً بعدها ممالكها إن البلاد بلادُه

كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى

فيا طالما غال الظلام امتداده

وابن القيسرانى يشيد بالسيف رمز القوة الذى لا يحمى البلاد ولا يصونها سواه ، وقد أعز في يوم الرها قبة الدين الحنيف وملاها خيلا وتيا بفضل حامله عماد الدين زنكى الذى أعلى شأن الإسلام ومجده بما حقق من ظفر عا طغيان الصليبيين على الفرات ، وهو محو لم يتم إلا بإزهاق نفوسهم وقطع رؤوسهم وحصادها حتى لكأنما كانت أكرام نبات أينعت وقطفت . وتكاثرت أسرى الصليبيين وأخذتها الأغلال والقيود في حين فكت القيود والأغلال عمن كانوا في سجونهم من المسلمين . وإنه ليتهدد ملوك الصليبيين بأن ما حل بالرها سيحل بهم ، فيصبحون بين قتيل وأسير ، وخير لهم أن يلقوا عن يد مستسلمين رادين البلاد إلى أهلها ارتداد الدار إلى صاحبها ومالكها ، وإلا فسيحقيق بهم ما حاق بإخوانهم في الرها . وإنه ليهيب بالظلام أن ينحسر عن تلك البلاد وينكشف عن سفوحها ووديانها حتى تنير عليها أضواء الصباح البهيج . وبينما عماد الدين جاد في حروب الصليبيين إذا يد آئمة تمتد إليه في الظلام لسنة خمسمائة وإحدى وأربعين ، ويبلغ الكتاب أجله . ويقتسم ابنه : غازى ونور الدين إمارته ، ويستقل غازى بالموصل ، ويستقل نور الدين بحلب ويقع عليه عبء جهاد الصليبيين ، ويعاود جوسلين صاحب الرها القديم الحلم بعودتها ويبدد حلمه نور الدين ، ويأخذ في الاستيلاء على كثير من الحصون ، ويجهز صاحب أنطاكية جيشاً جراراً من الصليبيين

لحربه : وتدور عليه وعلى جيشه الدوائر ويسقط في الميدان صريعاً ،
وتسيل دماء الباغين أنهاراً ، ويتعالى تكبير المسلمين وتهليلهم . ويستلهم
ابن القيسراني باثية أبي تمام السالفة في معركة عمورية ، منشداً قصيدة
ملتهبة ، يقول في تضاعيفها :

هذى العزائم لا ما تدعى القُضْبُ
وذى المكارم لاما قالت الكتبُ
أغرّتُ سيوفك بالإفرنج راجنةً
فؤاد رومية الكبرى لها يَجِبُ
غضبتُ للدين حتى لم يفتك رضا
وكان دين الهدى مرضاته الغَضْبُ
والنَّبل كالوَبُل هَطَّالٌ وليس له
سوى القيسى وأيدٍ فوقها سُحْبُ
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقبُ
واثذنْ لموجك في تطهير ساحله
وإنما أنت يَحْرُ لَجَّة لَجِبُ
وهو يشيد بعزائم نور الدين حين نكصت العزائم والهمم من حوله
أما هو فقد مضى يحطم جيوش الصليبيين ، بطلا من أبطال الجلال

والجهاد ، وقد أنزل بالروم صاعقة رجف لها فؤاد رومية دار بابواتهم الذين أغووهم على تلك الحرب الشعواء وما يسفك فيها من دماء . ويقول إن نور الدين غضب للدين الحنيف غضبة ضارية ، فإذا خيله تملأ ساحات الحرب ، والنبل يهطل من سحب الأقواس كأنه مطر منهمر ، ويهيب بنور الدين أن يخلص المسجد الأقصى من أيدي الصليبيين وأن يدفع بأموال جيشه لتطهيره من أدرانهم ، وقد أخذ يبدو للعبان أنه المنقذ المرموق لتطهير البلاد من شرهم المستطير .

وفي هذه الأثناء قدمت الحملة الصليبية الثانية ومعها الملكان كونراد الألماني ولويس السابع الفرنسي ، وقد مزق السلاجقيون جيش كونراد في آسيا الصغرى وفتكوا بجيش لويس السابع ووصلوا مع قلوب جيشهما إلى بيت المقدس ، ثم ارتحلا إلى غير مأب . ومضى نور الدين يشن الغارات على الصليبيين الشماليين فاتحاً القلاع والحصون ، وأذعنت له دمشق بالطاعة . وكانت عينه مصوّبة نحو مصر وخاصة بعد أن استولى الصليبيون على آخر بلد لها بالشام : عسقلان ، وبعد أن ظهرت منهم نوايا لغزوها ، وكان قد استقر في نفسه أن تتوحد كل البلدان العربية المحيطة بهم حتى يطوّقوا شمالاً وشرقاً وجنوباً . ولم يلبث ضرغام وشاور أن اقتتلا في القاهرة على الوزارة وفرع إليه شاور مستنجداً ، فأنجده بحملة على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتطور الأمور، وتنجسم لهما خيانة شاور واستعانته بالصليبيين ، ويدخلان مصر وينقذانها منهم . ويقتل شاور ، ويتولى شيركوه الوزارة شهوراً ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، وسرعان ما يتوفى الخليفة الفاطمي العاضد ،

فينقل صلاح الدين الخلافة من الفاطميين إلى العباسيين . وتصبح وحدة البلاد العربية المحيطة بالصلبيين حقيقة ماثلة . ولا يلبث نور لدين أن يلبى نداء ربه سنة خمسمائة وتسع وستين فيحمل العبء صلاح الدين ويعيد للبلاد الشامية والمصرية وحدتها . وأخذ يتزل ضرباته بالصلبيين ، وما توافى سنة خمسمائة وثلاث وثمانين حتى يشدد الخناق عليهم فتسقط قلاعهم وحصونهم بيديه واحدة في إثر أخرى . وتلتقى إحدى سراياه في شرقى حيفا بجماعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين ، وتنتصر عليهم السرية انتصاراً حاسماً يلتقى فيه قائد الإسبتارية حتفه ، ويستولى صلاح الدين على مدينة طبرية ، ولا يلبث أن يلتقى بجموع الصليبيين في تل حطّين ، ويلتحم القتال ويحمى الوطيس . وحال الليل بين العسكرين حتى إذا كان اليوم الثانى حمل المسلمون وصاحوا صيحة رجل واحد : الله أكبر ، وألقى الله الرعب في قلوب الصليبيين ، وقتلت منهم مقتلة عظيمة . وأحاط المسلمون بهم من كل جانب يقتلون ويأسرون ، وأخذوا الصليب الأعظم : صليب الصلبوت . وكان فتحاً عظيماً هلك فيه جمهور هذا الجيش الصليبي الضخم ووقع في الأسر قاداته وزعماءه : جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وأخوه أملاريك وجيرار مقدم الداوية وهنرى صاحب تبين وريجنالد صاحب الكرك والشوبك . وبلغ من كثرة الأسرى والقتلى أنه من كان يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى ، ومن كان يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى . وبلغ من كثرة الأسرى أن كان الواحد منهم يباع بثلاثة دنانير . ليعمل عبداً مملوكاً . ولم يكن هم صلاح الدين إلا ريجنالد

صاحب الكرك والشوبك إذ كان قد صنع أسطولا في أيلة (العقبة) لغزو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكاد ينفذ عزمه لولا أن باغته في البحر الأحمر أسطول مصرى قضى على أسطوله . وكان قد وقّع صلحا مع صلاح الدين وور به جماعة من المصريين فغدر بهم وقتلهم . ولذلك كله أهدر صلاح الدين دمه وطعنه بنفسه طعنة مصمية . واستولى صلاح الدين عقب هذا الفتح المبين على كثير من مدن فلسطين ولبنان مثل نابلس وقيسارية وحيفا وصيدا وبيروت وبيت جبريل (بئر سبع) ولم يبق في كل هذه الأثناء سوى الكرك والشوبك وصور . وزحف صلاح الدين على بيت المقدس ، ورماها بالمنجنيات وضيق على من بها من الصليبيين حتى استسلموا راغمين في شهر رجب سنة خمسائة وثلاث وثمانين ، ودخل صلاح الدين بجيشه إلى المدينة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء . ولعل فتحاً لم يظفر من الأدب نثره وشعره ، بما ظفر به هذا الفتح منذ حروب سيف الدولة والمعتصم مع الروم ، إذ كان الصليبيون قد استولوا على القدس منذ تسعين سنة واستيش الناس من عودته ، فلما عاد إليهم شعروا شعوراً عميقاً بأن صلاح الدين وجيشه ردوا إليهم فردوسهم المفقود ، وجاءوا من كل حدب إلى صلاح الدين يتغنون بنصره وبلائه وما فتح الله على يديه وأيدي جيشه في حطين ثم في القدس الشريف ، وللعقاد الأصهباني سينية رائعة أنشدها صلاح الدين يذكر فيها هذا الفتح الجليل ، وفيها يقول :

حططتُ على حطينٍ قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

بواقعةٍ رجّت بها الأرض جيشهم
دماراً كما بُسَّتْ جبالهم بساً

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض أن تكون لهم رَمْساً
سبايا بلاد الله مملوئة بها

وقد شريت بخساً وقد عرضت نخساً

يطاف بها الأسواق لا راغبٌ لها

لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوكساً

والعماد يصور ما نزل بأمراء الصليبيين من ذل وهوان في يوم حطين
وكيف مُزّقت جموعهم كل ممزق ، وزُلزل جيشهم زلزالاً شديداً ،
بل لكأنما فتّنت جبالهم تفتيتاً ، وقد تناثرت جشهم وأشلائهم وأصبحت
مأدبة كبيرة للذئاب ، وكأنما لم ترض أرض أن يتزلوا ثراها وتخط لهم
قبور فيها . وقد تكاثرت سباياهم ، حتى ليعرضها النخاسون بثمن بخس
لم يسبق له مثيل ، وإنهم ليطوفون بها الأسواق والناس معرضون عنها
لكثرتها كثرة من شأنها أن توجب الوكس والكساد . ويقول ابن سناء
الملك شاعر مصر لعهد صلاح الدين مهنتاً والبهجة تملأ صدره :

قمت في ظلمة الكريهة كالبد ر سناء والنور يسطع وهناً
لم تلاق الجيوش منهم ولك نك لاقيتهم بلاداً ومُدناً

وتصيدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنا
 وجرت منهم الدماء بحاراً فجرت فوقها الجزائر سفنا
 وحوى الأسر كل ملك يظن الـ دهر يفنى وملكه ليس يفنى
 وتهادت عرائس الملك تجلى وثمار الأملاك منهن تجنى
 قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزناً

وابن سناء الملك يستهل الأبيات بأن صلاح الدين يبلغ من بطولته
 وشجاعته أن ترى وجهه مهللاً بالنصر مستبشراً كأنه البدر يسطع في
 دجئة الظلام، وهو يتزل ضرباته المتلاحقة لا على جيوش الصليبيين
 فحسب، بل على مدنها وحصونهم، فإذا هي تفتح له أبوابها،
 ويتصوره وفي يده أسراهم من الشجعان والنساء كأنه صائد ماهر يصيدهم
 بشباكه، ويتعثرون فيها لا يستطيعون فكاً ولا خلاصاً. أما دماء
 قتلاهم فقد استحالت بحاراً وأنهاراً تعلو فيها جثثهم وكأنها جزائر
 وسفن متحركة، وقد استسلم ملوكهم خاسئين مدحجورين، ولم يغن
 ملكهم عنهم شيئاً. وأقبلت على صلاح الدين بلدان الشام تهادى إليه
 وكأنها عرائس في جلوة الفرع البهيج، وإن ثمار الأملاك لتلتقط
 منها وتقتطف اقتطافاً، وإن صلاح الدين لخليق بما ملك من شرق البلاد
 وغربها وحزونها وسهولها، ملكاً تصفق له البلاد طرباً وفرحاً، ويقول
 الحسن الجويني البغدادي نزيل مصر:

هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما

لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أَضَحَتْ ملوك الفرنج الصِّيد في يدهِ
صَيْدًا وما ضعفوا يوماً وما هانوا

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ وال
للإسلام أنصاره صُمِّ وعميانُ

لِلناصر أَدْخِرَتْ هَذِي الْفَتْوح وما
بَسَمَتْ لَهُمْ هَمَمُ الْأَمْلَاقِ مَذْكَانُوا

لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ
تَنْزَلَتْ فِيهِ آيَاتُ وَقُرْآنُ

فَاللَّهُ يَبْقِيكَ لِلْإِسْلَامِ تَحْرُسُهُ

مَنْ أَنَّ يَضَامَ وَيَلْنَى وَهُوَ حَيْرَانُ

والقصيدة كلها إشادة بالفتح وبصلاح الدين على هذا النمط ،
وهو يقول إن هذا الفتح خلاق بأن يكون كفتوح الأنبياء الملهمين ،
وإن الثناء عليه ليعلو على الأقوال والألفاظ ، وإنه خلاق بأن يدفع إلى
أفعال عظيمة تماثله ، ويقول إنه أسر ملوك الفرنج العاتين ، الذين طالما
شمخوا بشجاعتهم حتى التقوا به ، فإذا هو يعصف بهم عصفاً شديداً ،
بعد أن ظلوا سادرين في عتوهم تسعين عاماً ، والقدس وغيرها من
القلاع والحصون تصرخ وتستغيث ولا مغيث ولا مجير ، ويقول إن
هذه الفتوح نعمة ادخرها الزمان لصلاح الدين ، ولم يكن ملك ولا أمير
قبله تتناول إليها همته ، ولو أن فتح القدس حدث في عصر الرسالة

لنزلت فيه آيات قرآنية تشيد به وتمجده تمجيداً عظيماً ، ويدعو الله أن يبقيه للإسلام حارساً وحامياً له من أن يلحقه أى ضيم أو هوان .

ومضى صلاح الدين فى جهاده فاستسلمت له الكرك والشوبك ، ولم يبق للصليبيين سوى صور وطرابلس وأنطاكية . وفى هذه الأثناء كان البابا يواصل استصراخه ، فتكونت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الملك فردريك الألماني ، وفيليب ملك فرنسا ، وريتشارد ملك إنجلترا . واتخذ فردريك طريق البر إلى بيزنطة ونزل آسيا الصغرى بجموعه ، وبينما هو يعبر نهراً فيها سابحاً ابتلعه اليم وتفتشت الأوبئة فيمن معه ، وقدمت منهم فلول إلى إنطاكية ثم طرابلس . واتخذ فيليب وريتشارد طريق البحر المتوسط ونزلا فى صور ، ويشتركان فى حصار عكا وتعود إلى أيدي الصليبيين ثانية كما تعود حيفا ويافا ، ورأى ريتشارد أن الاستيلاء على بيت المقدس الذى جاءت من أجله الحملة أضعف أحلام ، فطلب من صلاح الدين الصلح ووضع أوزار الحرب لمدة ثلاث سنوات ، ولم ير صلاح الدين بأساً فى ذلك لإعداداً لمعركة فاصلة يقضى فيها على الصليبيين قضاء مبرماً ، ولم يلبث ريتشارد ، وكان قد سبقه فيليب ، أن رحل عن البلاد إلى غير رجعة . وما هى إلا أشهر معدودة حتى يابى صلاح الدين ، وكان بدمشق ، داعى ربه فى شهر صفر لسنة خمسائة وتسع وثمانين ، ويصلى عليه الناس أرسالاً ، وهم يبكونه بدموع غزار . وكان قد وزع دولته الواسعة بين أبنائه وعمهم العادل ، وأخذ العادل يعمل على إعادة توحيدها ثانية ؛ ولا نصل إلى سنة ٥٩٦ حتى تعود إليها وحدتها تحت لوائه ، غير أنه عاد فقسمها بين أولاده ،



إذ جعل مصر لابنه الكامل محمد ودمشق والديار الشامية لابنه المعظم عيسى ، أما البلاد الشرقية حتى نهر الفرات فجعلها لابنه الأشرف موسى وبذلك ملك هو وأبناؤه البلاد ودانت لهم العباد. وخفت حدة الحروب الصليبية ، إذ تحولت إلى مناوشات إلا قليلا ، وجاءت في أثناء ذلك إمدادات من أوروبا ولكنها لم تصنع شيئا ، حتى إذا كانت سنة ستائة وخمس عشرة أعد الصليبيون ، يتقدمهم صاحب عكا ، أسطولا ضخماً نزلوا به في دمياط ، ووضعوا في أهلها السيف قتلا وأسراً ، وعلم السلطان الكامل فاستنفر أخويه المعظم عيسى والأشرف موسى للجهاد وبادر لقتالهم ، واستقرت أقدامهم بدمياط نحو ثلاث سنين ، حاولوا بعدها الوصول إلى المنصورة ، وكان فيهم ثمانمائة من الخيالة غير آلاف الرجال ، وأحدثت بهم عساكر الكامل وأخويه موسى وعيسى ، وعصف بأسطوطم أسطول المسلمين ومنعت عنهم المؤن ، وأخذت الجيوش المصرية والشامية والموصلية تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، مما جعلهم يلقون عن يديهم صاغرون وخرجوا إلى البحر وما وراءه خاسئين ، وصور ذلك البهاء زهير شاعر مصر لعهد السلطان الكامل ، إذ يقول له من قصيدة طويلة :

بك اهتزَّ عِطْفُ الدين في حُلَلِ النَّصْرِ
ورُدَّتْ على أعقابها مَلَّةُ الكُفْرِ
وما فرحت مصرٌ بذلك وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
 ويشرب ، ينهيه إلى صاحب القبر
 سددت سبيل البحر والبر عنهم
 بسابحة دهم وسانحة غر
 أساطيل ليست في أساطير من مضى
 بكل غراب راح أفتك من صقر
 وباتت جنود الله فوق ضوامر
 بأوضحها تغنى السراة عن الفجر
 ورويت منهم ظمئ البيض والقنا
 وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
 ولا زلت حتى أيد الله خزيه
 وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر

والبهاء زهير يصور تهلل الدين الحنيف بظفر السلطان الكامل
 ودحره للصليبيين وانتكاسهم على أعقابهم ، ويقول إنها فرحة لم تسعد بها
 مصر حدها ، بل سعد بها العالم الإسلامي جميعه في بغداد وفي منازل
 الوحى بمكة والمدينة ، وإنه لحري أن يهنأ به الرسول عليه السلام ، فقد
 حمى السلطان بيضة الإسلام من الصليبيين وطهره في دمياط منهم
 ومن أوزارهم . ويقول إنه طوق العدو بجرأ وبرأ ، فحرق أسطول المسلمين

أسطوله ، وسدت مراكبه عليهم الطريق البحري كما سدت الخيل الغرطريقهم
البرى ، وإن غررها وحجوها البيضاء لتضيء حتى لتغنى السارين ليلاً
عن ضياء الفجر . وقد أطفأ بهم غلة السيوف والرماح وتعطشها إلى دماهم
كما أشبع بجثهم وأشلائهم جياع الذئب والنسور والعقبان . وظل ينازلهم
حتى استخلص منهم دمياط وحتى ولوا على وجوههم مقهورين إذ أيد
الله بنصره المؤمنين وكتب الخذلان والخسران على أعدائهم الصليبيين .
ويصور ابن عنين شاعر دمشق هذا الجيش اللجب للصليبيين وما سدد
إليه من ضربات المسلمين التي جعلته يركع على قدميه منهاراً
ويقارن بين صنع السلطان الكامل والمسلمين بأبراهم إذ عفوا عنهم
وردوا إليهم حرياتهم وبين ما كان الصليبيون يرتكبون في دمياط وفي
مدن الشام وحصونه من الذبح والتقتيل والتحريق ، وإنه ليقول مفتخراً
بهذا النصر العظيم :

سَلُوا صَهَوَاتِ الْخَيْلِ يَوْمَ الْوَعْغَى عَنَا

— إِذَا جُهِلَتْ آيَاتُنَا — وَالْقَنَا اللَّدْنَا

غَدَاة لَقِينَا دُونَ دَمِيَاطَ جَحْفَلًا

مَنْ الرُّومُ لَا يُحْصَى يَقِينًا وَلَا ظَنًّا

فَمَا بَرَحَتْ سُمْرُ الرُّمَاحِ تَنْوِشُهُمْ

بِأَطْرَافِهَا حَتَّى اسْتَجَارُوا بَنَّا مِنَّا

سقيناهم كُأْساً نَفَتْ عَنْهُمْ الْكَرَى
 وكيف ينام الليل من فقد الأَمْنَا
 لقوا الموت من زرق الأَسْنَةِ أَحْمَرًا
 فَأَلْقُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَيْنَا فَأَحْسَنَّا

وابن عنين يفاخر في أول هذه الأبيات ببسالة العرب التي تعرفها أدوات الحرب من الخيل والرمح اللدن اللينة النافذة يوم التقى الجيشان : الجيش العربي وجيش الروم الذي لا يكاد يمحصى ، وقد أسرع شجعان العرب ينوشونهم ويقتلونهم بأطراف الرماح ويذيقونهم بأسهم كُأْساً مريرة يتجرعون منها ما ينفض عن عيونهم الكرى ليلاً ، وهل ينام من يتقلب على أشواك الخوف والرعب . وما زال الجيش العربي يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، حتى استسلموا صاغرين من هول الحرب وما سقنا إليهم فيها من الموت الأحمر الخفيف .

وكانت هذه الحملة الحاسرة درساً للصليبيين ، فظلوا سنين متعاقبة لا يمر بخواطيرهم أن يتجمعوا في حملة جديدة ، حتى إذا كانت أواخر سنة ستمائة وسبع وأربعين وسوست إليهم شياطينهم أن يعودوا إلى غزو دمياط والديار المصرية وما أن ألم أسطولهم بها حتى خرج منها أهلها وتركوها نخاوية على عروشها . وكان قائد الحملة لويس التاسع ملك فرنسا فتقدم يجموعه إلى المنصورة ، والتقى بجيش توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، وكان غائباً في الشام ، و طال القتال بين

الفريقين شهراً ، وضعف حال الصليبيين لانقطاع المؤن عنهم ووقوع وباء في خيلهم ، وعزم لويس على الرجوع إلى دمياط ، وتصادف أن وصل توران شاه في أول شهر المحرم سنة ثمان وأربعين ، وعلم بمقصد لويس ، فداهمه هو وجيشه ليلاً ، وأخذ جنوده يتخطفونهم قتلاً وأسرًا ، وغنموا منهم مالا يوصف كما يقول المؤرخون وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم ، وأسر لويس التاسع في جماعة فرسانه في منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط ، وأنزل في مركب بالنيل لتقله إلى المنصورة ، وأحدثت به مراكب المسلمين تضرب فيها الصنوج والطبول ، وفي البر الشرقي الجيش المصري يسير في صباح وضجيج ، وفي البر الغربي الفلاحون والعمامة في هو وسرور بهذا الفتح العظيم ، والأسرى تقاد في الحبال وفيهم أمراء وكونتات وأشراف . وأحصيت عدة الأسرى فكانوا ثيِّفاً وعشرين ألفاً حبسوا بالمنصورة ، وبخصصت بسجن لويس التاسع دار من دور الدولة تعرف بدار ابن لقمان ، وهي الدار التي كان ينزل فيها فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء كلما جاء إلى المنصورة في عمل يتعلق بوظيفته ، وعين للويس حارس يحفظه هو الطواشي صبيح . ولم يلبث أن طلب الدخول في الصلح والعودة إلى بلاده على أن يسلم دمياط ويسلم معها خمسمائة ألف دينار ، وخرج على وجهه مع بقايا جيشه خاسئاً مدحوراً . ومضت نحو عشر سنوات ، فإذا نفسه تحدثه أن يعاود الكرة للهجوم على البلاد الإسلامية وينزل تونس ، وترد إلى مصر أخبار بأنه إنما يريد السير إليها ، ولا يلبث ابن مطروح أحد شعراء مصر النابيين حينئذ أن يتهدده ويتوعده ، وينصب أمام عينيه سجنه بدار ابن لقمان

وما ينتظره من سوء المصير ، يقول هازئاً به ساخراً منه سخريه لاذعة :

قُلْ للفرنسيّس إذا جئته	مقالَ صدقٍ من قَتُولِ فصيحٍ
أجرك الله على ما جرى	من قَتَلِ عُبَادِ يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي مُلكها	تحسب أن الزمر ياطبلُ ريح
فساقك الحَيْنُ إلى أذهم	ضاق به عن ناظرِكَ الفَسيح
وكلّ أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم	إلا قَتيلٌ أو أسيرٌ جريح
وفّقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان ياباكنم بذرا راضياً	فربُّ غِشٍّ قد أتى من نصيح
وقُلْ لهم إن أضمرنا عودةً	لأخذِ ثأرٍ أو لقصدِ صحيح
دارُ ابن لقمانَ على حالها	والقيّدُ باقي والطواشي صبيح

وهو يستهل تقريره للويس التاسع بأنه مرسل له بكلمات صادقة ، وتتوالى الكلمات ، وكأنها أفاع تطوق عنقه ، وأول أفعى دعاؤه له بحسن الأجر والثواب على ما أنزله بعباد المسيح من الصليبيين أمثاله من القتل والذبح وقطع الرقاب . والأفعى الثانية تهكمه بما أراد من الاستيلاء على مصر ، يحسب أن ذلك قاب قومين منه ، فإذا هو ضرب من المستحبات دونه حَزَّ الأعناق والإلقاء في غياهب السجون مع الأغلال والقيود

على نحو ما ساقه الموت إلى سلاسل محبسه في دار ابن لقمان حيث ضاقت عليه آفاق الأرض بما رحبت ، وتلك هي الأفعى الثالثة . والأفعى الرابعة تنكيله بأصحابه إذ ساقهم بحسن تدبيره ، بل بقبحه ، إلى القبور والسجون زرافات ووحداً ، حتى ليبلغون خمسين ألفاً . ويحيط عنقه بأفعى فظيعة من التهكم ، إذ يدعو له أن يوفقه الله إلى أمثال تلك الحملة حتى يستريح عيسى من جماعات الصليبيين ، ويقول له إن كان البابا راضياً عن حملاتكم فقد غشكم وغبنكم ورب غبن يسوقه نصيح . ويرفع أمام عينيه دار ابن لقمان وقيده وحارسه الأمين . ويتوجه إلى الملك الصليبي بالخطاب شاعر تونسى قائلا :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير
وكان هذا فألا حسناً ، إذ مات لويس على أسوار تونس وهو محاصر لها ، فارتد جيشه على أعقابه كسيراً دون حرب أو قتال . وكأنما خابت جميع آمال الصليبيين ، فلم يعودوا يفكرون في حملات ولا في إغارات . وما نصل إلى سنة ستائة وثمان وخمسين حتى يستنقذ منهم الظاهر بيبرس إنطاكية ويمضى في استنقاذ كثير من البلدان والحصون مثل يافا والمجدل وطرطوس . ومضى في إثره السلطان المنصور قلاوون يستنزل الصليبيين من كثير من حصون الشام ، وافتتح طرابلس في سنة ستائة وثمان وثمانين ، واستولى على كثير من القلاع المجاورة لها ، وخلفه ابنه خليل فاستولى على صور وصيدا . وسقطت عكا آخر معاقل الصليبيين

في سنة ست مائة وتسعين بعد أن لقنهم جيوشنا وأبطالها درساً لم ينسوه ، وبعد أن بذلوا ألوف الضحايا بل مئات الألوف في غير طائل ، وبعد أن تحملوا من الشقاء والتعاسة مالا يدرك ولا يوصف . وكان طبعياً أن تتكاثر أناشيد الانتصار بعد سقوط عكا ، وأن يتهج الشعراء بالنصر مع المتهجين من مثل الشهاب محمود ، وله من قصيدة طويلة بهيئتها فيها السلطان الأشرف خليل بهذا الفتح العظيم :

الحمد لله زالت دولة الصليب وعز بالسيف دين المصطفى العربي
ما بعد عكا ، وقد هددت قواعدها في البحر ، للشرك عند البر من أرب
كانت تخيلها آمالنا فترى أن التفكير فيها أعجب العجب
سوران : بزوب حر حول ساحتها دارا ، وأدناها أنأى من القطب
مصفتح بصفاح حولها أكمل من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمام تهدي من صواعقها

بالنبل أضعاف ما يهدي من السحب
ففاجأتها جنود الله يقدمها غضبان لله ، لا للملك والنشب
فأصبحت وهي في بحرین ماثلة
ما بين مضطرم نارا ومضطرب

تسئموها فلم يترك تسئموها في ذلك الأفق برجا غير منقلب

والشاعر يحمد الله ويثني على آلائه ونعمه ، فقد انحلت من الأراضي المقدسة دولة الصليبيين ، وعزّ الدين الحنيف ، وإنه لعزّ ما فوقه عزّ فقد سقطت عكا ، وهدمت قواعدها الملاصقة للبحر ، كما هدمت أسوارها الملاصقة للبر ، وهو ما يفوق كل خيال ، إذ كان يحيط بها سوران يستديران من حولها فلا يستطيع أحد إليها نفوذاً ، سور البر وسور البحر المصعدان في السماء حتى ليظن من يراها أنهما أبعد من القطب منالاً ، وعلى كل منهما صفائح السلاح وآكام الرماح وأبراج من اليلب أو التروس تحمي وتدافع وترسل النبل وصواعقه وكأنها غمام ممطرة ترعد وتبرق بشعل الموت وسهامه . ويقول الشهاب إنه هاجمها بجيشه طلباً للثواب لا لمال ولا لملك رقعة من الأرض ، وحاصرها بحران : بحرها المضطرب بأهواجه وبحر السلطان خليل المضطرب بسيوفه ورماحه ونباله ، وقد علا جند الله أسوارها وقلبوا بروجها وجعلوا عاليها سافلها .

ويذكر الشهاب في القصيدة نار المجانيق ، ويقول إنها كانت ناراً عظيمة تغلغت في البروج وتعالّت في أركان السماء علواً أخذ كل ما كان يعتلج في صدر الدين الحنيف من كرب وغصص . وما زال الأشرف وجيشه يقتل في الصليبيين ويأسر ، ولم يفلت منهم إلا قليل ركبوا البحر المتوسط ، ورجعوا إلى أوطانهم ليحدثوا أهلها بأخبار تلك الواقعة وكيف كانت مجزرة للصليبيين قضت عليهم قضاء مبرماً حتى كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً .

وحتى الآن لم نتحدث عن الحروب المغولية ، ومعروف أن الطوفان المغولي أخذ يمتد من الصين لسنة ستائة وثمان عشرة متجهاً غرباً ،

مكتسحاً أمامه ، بقيادة جنكيزخان ، كل ما يعترضه من جيوش ودول وبلدان ، فلا أمراء التركستان ولا أمراء خوارزم وإيران استطاعوا أن يصدوا تياره أو حتى يقفوه قليلاً ، فالطوفان كان جارفاً عاتياً ، ومات جنكيزخان لسنة ستائة وأربع وعشرين وخلفه أبنائه يفتحون بقية المدن في إيران ومدن القوقاز وحصونها ، وكلما ألما بمحصن سلم حرسه مفتاحه لهم أو اقتحموه اقتحاماً . وامتد الطوفان بقيادة هولاكو حفيد جنكيزخان إلى العراق ، وحدثت الطامة الكبرى إذ سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية لسنة ستائة وست وخمسين ، ويقال إنه استمر فيها القتل وسفك الدماء بضعة وثلاثين يوماً ، وإنه بلغ عدد من قتلهم المغول أو التتار ثمانمائة ألف أو يزيدون . ومضى الطوفان يكتسح بلاد العراق بلدة إثر أخرى ، واتجه إلى الشام فاستسلمت له حلب ، وتلتها البلاد الشامية تسلم مفاتيحها وأقفالها للتتار ، وحسب الناس كأن شيئاً لا يمكن أن يردهم عن مصر وما وراءها من بلاد المغرب ، وكانت مصر حينئذ تزعم العالم العربي في حربه مع الصليبيين ، وتوشك أن تقضى عليهم القضاء الأخير ، فكان طبيعياً أن تعرف خطورة الموقف وأن تستعد لكبح جماح هذا الطوفان وصدده لاعتها فحسب ، بل أيضاً عن البلاد الشقيقة الشامية والعراقية ، ورده إلى مقره ومصدره . وخرجت من مصر الجحافل المصرية لسنة ستائة وثمان وخمسين ، يقودها السلطان قطز وظهيره بيبرس البندقدارى . وعلم المغول بخروج تلك الجحافل ، فأعدوا لها ما استطاعوا من قوة ، والتقى الجيشان الضخمان في عين جالوت بفلسطين بين ييسان ونابلس ، واقتتلا قتالا عنيفاً ، استمر فيه واستبسل

حتى كتب الله النصر للمسلمين ، وانكسر التتار ، وولوا الأدبار ، بعد أن قتل المصريون والشاميون منهم مقتلة عظيمة ، وقتل قائدهم كتبغا ، واعتصمت منهم طائفة بتل مجاور لمكان الموقعة ، فأحدثت بهم العساكر وأفنؤهم قتلاً . وتبع بيبرس في جماعة من الشجعان والفرسان فلوهم المهزومة إلى أطراف البلاد يقتل فيهم . وفتحت البلاد الشامية أبوابها للجيش المنصور ، وتعقبهم بيبرس حتى حلب ، ووصل السلطان قطز دمشق مؤيداً منصوراً واستقبله أهلها استقبالا حافلا ، وأخذوا ينثرون عليه كثيراً من أشعارهم وأناشيدهم .

والبطل الحقيقي لهذه المعركة هو بيبرس البندقدارى ، الذى أبلى فيها بلاء حسناً ، ومضى وراء التتار المهزمين حتى كسح سيلهم من الشام جميعه ، حتى أبوابه العليا فى حلب ، وبذلك انحسر طوفانهم وسيوله . وقد ولى سلطنة مصر والشام فى نفس العام ، وعهده يعد من أزهى عهود المماليك ، وقد تلقب بالسلطان الظاهر ، ورأينا آنفاً حملاته على الصليبيين وتوجيهه إليهم ضربات قاصمة . أما التتار فقد كان دائماً لهم بالمرصاد ، ووافته الأنباء فى سنة ستائة وإحدى وسبعين بأنهم يعدون العدة لغزو الشام ، فزحف إليهم بجيش جرار ، وعرف أنهم يتجمعون شرقى نهر الفرات ، فخاضة إليهم بعسكره ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة كهزيمة عين جالوت ، وتوافد عليه الشعراء يهتفون بهذا النصر المبين مشيدين بجرأته وجرأة جيشه فى خوض بلحج الفرات وخوض بلحج دماء الأعداء إلى الظفر على شاكلة قول الشهاب محمود :

سِرُّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمَنُ جَارُ
 وَاحِكُمْ قَطُوعٍ مَرَادِكَ الْأَقْدَارُ
 لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ
 يَارُكُنْهُ عِنْدَ الْأَعَادَى ثَارُ
 لَمَّا تَرَاقَصَتِ الرُّعُوسُ وَحُرِّكَتْ
 مِنْ مَطْرِبَاتِ قَيْسِيَّكَ الْأَوْتَارُ
 رَشَّتْ دِمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطِرْ
 مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غِبَارُ
 شَكَرْتَ مَسَاعِيكَ الْمَعَاقِلُ وَالْوَرَى
 وَالتُّرْبُ وَالْآسَادُ وَالْأَطْيَارُ

والشهاب محمود يهني الظاهر بيبرس بما يدل عليه هذا النصر العظيم
 من حماية الله له وخضوع المقادير ، تصدع بكل ما يشاء ويريد ،
 وكأنها مسخرة له تسخيراً ، ويقول إنه أظهر الدين الحنيف وأعزه ورفع
 رأسه عالياً بما حقق له من إدراك ثأره عند التتار ، ويصور جرأته وجرأة
 جيشه الجرار . فبمجرد أن تراءى العدو على الشاطئ الشرقى للفرات
 اقتحمه إليه ، واقتحمه معه جيشه ، وإذا الفرات يتقطع فرقاً ، وكل
 فريق كأنه طود ، وما الطود والأطواد إلا جيش السلطان الظاهر الذي
 سرعان ما اشتبك مع التتار ، وأخذ ينحر فيهم كالخراف حتى جرت

سيول دماءهم على الأرض ، فكنت لا ترى غباراً تثيره الخيل ، إنما ترى دماء مسفوحة تغوص فيها . وإن كل شيء ليشكر بيبرس ومساعديه وأعماله الجليلة ، تشكره الحصون على ما أحاطها به من منعة ، ويشكره الناس لحمايتهم والدفاع عنهم ، ويشكره التراب لما سقاه من دماء الأعداء ، وتشكره الأسد والطير لما أطعمها من جثث التار وأشلائهم المتناثرة .

وما إن نشرف على أواسط العقد الأخير من القرن السابع الهجري حتى يعتنق الإسلام غازان حفيده ولاكو هو وجنوده ، ويكون ذلك إيذاناً بانتهاء الصراع بين البلاد الإسلامية والمغول ، إلا مناوشات وغارات من حين لآخر . وبذلك يصبح الظاهر بيبرس بطل الحروب التي خاضتها مصر والشام ضد المغول ، وكان له أيضاً دوره ، كما أسلفنا ، في الحروب الصليبية . وكان بحق سلطاناً شجاعاً مقداماً وفارساً غازياً مجاهداً في سبيل الله مرابطاً بالشغور سريع الحركة ، يقود الجيوش ويقتحم المعارك بنفسه مبادراً إلى حوماتها وساحاتها المضطربة ، ولعله لذلك اتخذ القصاص من بعده مادة لسيرة تعرف باسمه ، وهي قصة طويلة تصور بطولته في معاركه وحروبه كما تصور فروسيته وشيمه الرفيعة وخاصة شيمه التسامح والعفو عن الأعداء حين يقعون في قبضته ، وأيضاً فإنها تصور نخوته ومروءته وإقدامه وجراته .

والسيرة تمتلئ بمغامرات وخوارق كثيرة وكأنها سيرة البطل العربي في الحروب الصليبية والمغولية جميعاً وكل ما نهض به في هذه الحروب من ضروب بسالة خارقة وكل ما اتسم به فيها من خصال خلقية كريمة .

في معارك التحرير

ظلت البطولة العربية تضطرم في معارك العرب مع الغرب على مدار التاريخ ، اضطربت منذ الفتوح الإسلامية في معاركهم مع البيزنطيين ، وازداد اضطرامها حدة وقوة في معاركهم مع الصليبيين ، وسقطت منها شعل قوية في معاركهم بالأندلس مع الإسبان . ثم أخذ يتراكم عليها رماد ثقيل منذ احتل العثمانيون البلاد العربية في القرن السادس عشر الميلادي . وما يكاد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى يغزو الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت ، ويتضح للمصريين في جلاء ضعف العثمانيين وتابعيهم من المماليك ، إذ لم يستطيعوا الوقوف في وجه الفرنسيين ، وأخذت جذوة الشعور القومي العربي تتقد من جديد ، فمضى المصريون يصعدون عنها في مقاومة الفرنسيين المغيرين حتى اضطروا إلى مغادرة مصر مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه . ونهت الحملة مصر إلى ما كانت ترزح فيه من تخلف لا في المجال العسكري فحسب بل أيضاً في المجالين العلمي والسياسي ، واندفعت في نهضة علمية كبيرة ، مؤسسة لمدارس مختلفة حربية وصناعية وهندسية وطبية ، ومستقدمة طائفة من العلماء الأوربيين ، ومرسلة البعث للتخصص في مجالات العلوم المتنوعة . وفي هذه الأثناء أخذت البطولة

المصرية العربية تجمع تحت لواؤها الجزيرة العربية والشام والسودان ، وكأنها تريد أن ترد إلى الديار العربية وحدتها القديمة ، غير أن الغرب كان لها بالمرصاد ، فأرغمها في سنة ١٨٤٠ على أن ينحسر لواؤها عن الشام والجزيرة العربية ، أما مصر فتظل ولاية عثمانية ، تتولاها أسرة محمد علي ، وليس من حقها بأي وجه أن يتجاوز جيشها ثمانية عشر ألف جندي إلا بإذن من السلطان العثماني ، وعليها أن تخضع لما فرضه العثمانيون في دولتهم للأوروبيين من امتيازات .

ومنذ أخفقت حملة نابليون على مصر كانت فرنسا تفكر في قطر عربي آخر تحتله وتعتصر ثماره ، وسرعان ما نزل جيشها الجزائر لسنة ١٨٣٠ مجدداً الحملة الفرنسية على مصر ، بل مجدداً الروح الصليبية الآتمة ، مستخدماً كل ضرب من ضروب العنف والبطش ، وقاومت الجزائر مقاومة باسلة امتدت سبعة عشر عاماً ، وكان الذي سهرها وأذكى نارها البطل المغوار عبد القادر الجزائري وقد بايعه الشعب أميراً له وزعيماً وقائداً عسكرياً سنة ١٨٣٢ ، وتجمع الشباب وأولو العزم من حوله ، وأخذ ينازل الفرنسيين وينزل بهم ضربات قاصمة : وطلال أمد المعارك ، وهي أولى معارك التحرير العربية ، وقد مضى العرب الجزائريون فيها تحت لواء الأمير يعصفون بالعدو وجنوده ورضاضه ومدافعه ، غير مباينين بالموت ، بل لأنهم يستغذبونه في سبيل إنقاذ وطنهم وتحريره من المستعمر الغاشم ، بل لقد كانت لهم مواقع عظيمة دقوا فيها أعناقهم دقاً ، وبخاصة في خندق النطاح الأول وخندق النطاح الثانية وفي فتح تلمسان واستردادها من أيدي الأعداء : وكم كابدت

الجزائر في هذه المعارك الطاحنة ، وكم صلى أهلها من قتل وتعذيب ،
والمجاهدون الأحرار صامدون من وراء بطلهم ينكلون بالعدو تنكيلا شديداً
وما زالت تتوالى عليه الإمدادات ، حتى تغلبت قوى الشر والظلم والبغى
والعدوان لسنة ١٨٤٧ بعد نضال مرير. وتسكن المقاومة بعد الجهاد العظيم ،
ويستسلم الليث المصور وينتقل إلى فرنسا ، ثم يفرج عنه بعد سنوات ، فينتقل
تركيا ثم دمشق والشام . وكان شاعراً ، كما كان فارساً مقداماً ، فتغنى
بالفروسية وبالبطولة صارخاً في أمة وجنوده حتى يقتحموا معه بلجج
الحرب وأعاصيرها الجاحمة مصوراً لهم بسالته وشجاعته الحربية بمثل قوله
مخاطباً زوجته :

إذا ما لقيت الخيل إني لأول

وإن جال أصبجاني فإني لهم تال

وبي تشقى يوم الطعان فوارسي

تخالينهم في الحرب أمثال أشبال

وأبذل يوم الرّوع نفساً كريمة

على أنها في السلم أغلى من الغالي

وعني سلى جنس الفرنسيين تعلمي

بأن منايهم بسيفي وعسالي

وهو يصور نفسه فارساً يتقدم الفرسان في العراك والتزال . حتى إنهم
ليلوذون به مع ما أوتوه من قوة كقوة الليوث الكواسر : وإنه ليحمس

الخيل حين تشتكى بأصواتها الخفية من كثرة ما يأخذها من السهام والنصال والرصاص ، حاثاً لها أن تصبر صبره في المآزق الكريهة . ويعلن إعلاناً أنه يضحي بنفسه الغالية من أجل وطنه حين يحمي وطيس الحرب ، إنها أنفس ما يملك وهو يبذلها لأمته راضياً . ويتجه إلى زوجته مفاخرأ بما أبلى في حرب الفرنسيين ، فلإنها حين تسأل عن شأنه في معاركه التي يخوضها معهم تعلم أن سيفه ورمحه لا يزالان ينهشانهم نهشاً .

وأخذت فرنسا منذ احتلت الجزائر تمد في الأسباب لاحتلال تونس ، وكان حكم البايات فيها قد استشرى فيه الفساد ، لما شاع فيه من جور وظلم ، ولما أرهقت به البلاد من ديون ، وخاصة لفرنسا ، التي ظلت تحيك شباكها حول تونس ، حتى احتلتها لسنة ١٨٨١ بعد أن غلبت على أمرها ، فقد اكتسحت قوى العدو البلاد ، وأخضعتها لحكمها بالقهر والبطش . ومضى الفرنسيون يعملون على اغتصاب كل ثروات تونس وإفقار شعبها وتخنيقها اقتصادياً ، وشد الرحال إليها كثيرون منهم : سماسرة وتجار ولصوص محترفون .

وكانت إنجلترا قد أخذت منذ حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تعد العدة للانقضاض عليها ، وكانت أجنحتها قد قصبت منذ سنة ١٨٤٠ ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً إذ جرّدت من عدتها الحربية وأصبحت نهياً للأوربيين ، وعادت ولاية تابعة للعثمانيين ، ومد سعيد يديه إلى الغرب يستدين ، وظل قرصان فرنسي كبير يوسوس له بمشروع قناة السويس لوصول البحرين الأحمر والمتوسط ، ومازال به حتى منحه لسنة ١٨٥٤ العقد المشنوم ، عقد امتياز تأسيس شركة

عامة لحفر القناة ، وكان مأساة لا مثيل لها في التاريخ ، فإن سعيداً لم يقف عند إنشاء القناة على يد شركة أجنبية ، بل مضى يسرف في منحها الحقوق حتى أصبحت كأنها دولة داخل دولة ، وقد تعهد فيما تعهد أن يقدم للشركة ثمانين في المائة مما تحتاج إليه من عمال ، وليس لمصر في مقابل ذلك سوى خمسة عشر في المائة من صافي الأرباح السنوية ، وباع توفيق الأحمق فيما بعد للبنك العقاري الفرنسي هذه الأرباح التي تخص مصر بثمن بخس : اثنين وعشرين مليوناً من الفرنكات . وتوفي سعيد وخلفه إسماعيل لسنة ١٨٦٣ وحفر القناة قائم على قدم وساق وكان أكثر حمقاً من سلفه ، وتورط في ديون باهظة ، وكان لمصر من أسهم القناة ما يقرب من نصفها اكتتبت بها في عهد سعيد فباعها لإنجلترا بدراهم معدودات : أربعة ملايين من الجنيهات . وأسوأ ما أصيبت به مصر لعهد الديون الفادحة ، إذ مضى يقترض بدون أى مسوغ من البيوت المالية الأجنبية القناطير المقنطرة من الذهب والفضة حتى بلغت أكثر من مائة مليون من الجنيهات ، وكلما تسلم قنطاراً بعثه في مآربه الدنيا ، فقناطير تنفق على بناء قصوره ، وثانية تنفق على مبادله ، وثالثة تنفق على رحلاته إلى أوروبا والآستانة . ويكفهر الجو ، وإسماعيل سادر في طغيانه وجبروته ، وشيطانه إسماعيل صديق وزير ماليته يسوّل له فرض الضرائب ، حتى كلّ الشعب ونخارت قواه ، وأخذت المشاعر القومية تضطرم ، واضطربت معها في نفوس كثيرين رغبة قوية في الثورة على الظلم والطغيان وما توشك أن تردى فيه البلاد من الإفلاس وما لا يعلمه إلا الله من سوء المصير ، ويرتفع صوت البارودي مجلجلاً

لسنة ١٨٦٩ مطالباً شعبه بالقضاء على إسماعيل وحكمه الفاسد قضاء
مبرماً ، صارخاً بكل قوته :

فيا قوم هبوا إنما العمر فرضة وفي الدهر طُرُقُ جَمَّةٌ ومنافعُ
أصبراً على مسِّ الهوان وأنتم عديدُ الحصى؟ إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذلَّ دار إقامةٍ وذلك فضل الله في الأرض واسع
أرى أروساً قد أينعت ليحصادها

فأين - - ولا أين - السيوف القواطع
أهبتُ فعاد الصوت لم يقض حاجة

إلى ولباني الصدى وهو طائع
والبارودي يهيب بقومه ألا يتركوا الفرصة تضيق من أيديهم فيثوروا
ثورة مدمرة على ظالمهم وأعدائه الذين يذيقونهم ضرراً لا تطاق من
العسف والهوان والذل المقيت الذي لا تستطيع احتماله النفوس الكريمة ،
بل الذي يدفعها دفعاً إلى أن تنتقم لعزتها وكرامتها من أحاطوها به .
وتبلغ الثورة الذروة في نفس البارودي فيطلب إلى الشعب أن يمد
أيديه ليقطف رأس إسماعيل ورعوس بطائته التي أغوته . ويحس كأنما تذهب
صرخته أذراج الرياح ، فيحزن ويأس ، إذ لا يجد الشعب يسارع
إلى الثورة وإلقاء أعباء الظلم عن ظهره .

وكلما تقدمت سنة من سنوات العقد الثامن من القرن الماضي
ازدادت محنة مصر المالية وتكاثرت ديون إسماعيل السفيه ، وليس ذلك

فقط فقد ارتضى تدخل الأجانب في شئون مصر ، وأنشأ لسنة ١٨٧٦ صندوق الدين ، وزاد الطين ضغثاً على إباله ، فارتضى أن يقوم رقيبان إنجليزى وفرنسى على شئون المالية المصرية ، وسرعان ما أصبحا في سنة ١٨٧٨ وزيرين في وزارة نوبار أحد العملاء القدماء للأوربيين ، وأخذت نفوس المصريين تغلى بالحنق والسخط على إسماعيل وحاشيته ، ومضى كثيرون يدعون للثورة على الفساد والظلم والطغيان ، قبل أن تتردى البلاد في هوة لا تستطيع منها خلاصاً ، وعاد البارودى يصيح بالشعب أن يثور على حكاه الفاسدين الجائرين ثورة عنيفة يسترد بها حريته وحقوقه فيمن يوليه شئون نفسه ، حتى يتدارك الأمر قبل فوته ، فيزيح عن كاهله الديون الباهظة ، ويعم الأمن والعدل ويعود الرخاء ، يقول من قصيدة طويلة :

وإننا غرضٌ للشرِّ في زمنٍ
 أهلُ العقول به في طاعة الخَمَلِ
 قامتُ به من رجال السوء طائفةٌ
 أدهى على النفس من بُؤسٍ على ثَكَلِ
 من كلِّ وَغْدٍ يكاد الدَّسْتُ يدفعه
 بُغْضاً ويلفظه الديوانُ من مَلَلِ
 فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
 شِكَاةَ الرِّثِّ فالدنيا مع العَجَلِ

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ شَهْمًا أَخَا ثِقَةٍ
يَكُونُ رِدْءًا لَكُمْ فِي الْحَادِثِ الْجَلَلِ
وَطَالِبُوا بِحَقُوقٍ أَصْبَحَتْ غَرْضًا
لِكُلِّ مُنْتَزِعٍ شَهْمًا وَمُخْتَلِلِ
حَتَّى تَعُودَ سِمَاءُ الْأَمْنِ ضَاحِيَةً
وَيَرْفُلُ الْعَدْلُ فِي ضَافٍ مِنَ الْحُلِّ

وهو يستثير الشعب بما يصور من الشر الجاثم على صدره وكأنما
يستكين عقلاؤه لمن يحكمهم من الحاملين الذين أحالوا حياتهم بؤساً
وحزنًا حزن الشكالي على أبنائها، من كل وغد لثيم، يكاد دسسته في الحكم
أو بعبارة أخرى مجلسه فيه يدفعه عنه دفعاً ليدفع ما دنسه من عار ،
وأى عار ؟ لقد ذلت بهم مصر بعد العز واختل ملكها وكل ما فيها .
ويعجب البارودي ألا يسارع الشعب إلى الانتقام من إسماعيل وحواشييه
الذين استدلووه ، وإنه ليتساءل مستثيراً الهمم ومستنهضاً العزائم هل حل
بالأبطال ضعف أو أصاب الأسياف قلل فلا تستطيع أن تضرب الضربات
المصمية ، ويدعو محمساً إلى المبادرة وفك عقال الإبطاء ، حافزاً
للثورة تحت لوائه والمطالبة بحقوق الأمة المشروعة التي أصبحت
لكل أبناء الأمم من محاربين بالسيف وبالحديعة والمكر ، حتى تشرق
على مصر أضواء الأمن والدعة ، وحتى ترفل في حلل العدالة والكرامة .
وينتهي عصر إسماعيل ويخلفه ابنه توفيق ، ويمضي متخبطاً في

سياسة نخرقاء عمادها حكم استبدادى ظالم وازدياد نفوذ الأوربيين في الدولة بالإكثار من توظيف كثير من المستشارين الذين تغلغلوا في الدواوين ، وإتاحة الفرصة لرعوس الأموال الأجنبية كي تستثمر موارد البلاد وتستنزف آخر قطرة من قطراتها . وكان أبوه قد عمل على أن يحرم الضباط المصريين من الترقية إلى الوظائف العليا في الجيش على الرغم من كفاياتهم الممتازة ، وجعلها مقصورة على الضباط الأتراك والشراكسة ، وتمادى توفيق في هذا الظلم الصارخ ، وبلغ الظلم ذروته بتوليته عثمان رفقي الشركسي شئون البحرية والحربية ، وسرعان ما قامت الثورة العراقية بقيادة أحمد عرابي على هذا الظلم المجحف ، وأذعن الحديوي توفيق صاغراً ، ونخرج رفقي من نظارة الحربية والبحرية وتولاها محمود سامي البارودي . وأخذت تتوالى الأحداث ، وتألفت وزارة من زعماء الحركة العراقية برياسة البارودي ونهوض عرابي بنظارة الحربية والبحرية . ولم يقر قرار الإنجليز ، لقيام هذه الحكومة الوطنية التي ينتظر أن ترد الأمر إلى نصابه وتنقذ مصر من الدمار الإقتصادي الذي يوشك أن يؤدي بها إلى دمار سياسي أكيد ، وأخذوا يبذرون بذور الوقيعة الوضيعة بين توفيق والحكومة الرشيدة ، وما زالوا يحكون الدسائس والفتن حتى ارتضى توفيق الطائش قصير النظر أن تدخل جيوشهم مصر لحمايته من الثوار ، وسرعان ما دوت مدافعهم على شواطئ الإسكندرية وبور سعيد والسويس ، وقاوم الجيش والشعب بقيادة عرابي والبارودي مقاومة باسلة غير أنهما كانا يقاومان جيشاً ضخماً يفوقهما في عدده وعدته الحربية ، فانتصر العدو الآثم ، ومضى حتى احتل القاهرة . ودخلها في ظلال

مدافعه ورصاصة توفيق ومن معه من الحائنين ، واستقر العدو على ضفاف النيل محتلا البلاد الطاهرة ، زاعماً كذباً وبهتاناً أنه سيجلو عنها حين تهدأ الأمور . ولما هدأت تفاوض مع الدولة العثمانية على الجلاء ، ولكنه وضع من دونه شروطاً تثبت أقدامه في مصر وتفسح له في المقام . وكان زعماء الثورة العربية قد اعتقلوا وألقي بهم في غياهب السجون انتظاراً للمحاكمة ، وحكم بالنفي المؤبد على زعماء الثورة وفي مقدمتهم عرابي والبارودي ، ونفوا إلى سرنديب .

وكان البارودي في كل هذه الظروف التي أجملناها يفرع إلى قيثارته يتغنى عليها بكل ما يحدث في نفسه من سخط على توفيق وبطانته ، ومن ثورة على المستبد الأرعن ومن محاولة لاستنهاض الشعب كي يلقى شواظ غيظه على ظالمه إلقاءً عنيفاً يهز القلوب هزاً ويزلزل الفساد زلزالاً يأتي عليه وعلى من يمدون له في أسباب الغواية . ومن خير ما يصور ذلك قصيدته التي نظمها وهو ناظر النظار يدعو فيها دعوة صريحة للثورة على توفيق ، ثورة دامية تطيح برأسه ورءوس أذنا به ، يقول :

تالله أهدأ أو تقوم قيامة	فيها الدماء على الدماء تُراق
أنا لا أقر على القبيح مهابة	إن القرار على القبيح نفاق
قلبي على ثقة ونفسي حرة	تأبى الدني وصاري ذلاق
وعلام يخشى المرء فرقة روحه	أو ليس عاقبة الحياة فراق

وهو يجاهر بأنه لن يهدأ ولن يستريح حتى تنتشب ثورة حمراء يسيل فيها دم توفيق وأعوانه مدراراً ، ويقول إنه لا يقر أي عمل قبيح نفاقاً

ورياء ، فقد خلق أبيضاً حراً ، يأبى دنيات الأمور ، معتصماً بسيف قاطع .
وفيم يخشى المرء الموت ، وهو عاقبة كل حى إذ كل من عليها فان
فإما عيش كريم وإما موت زؤام . ولو أنه استخدم سيفه حينئذ وأراح
مصر من محنتها بتوفيق لما نزلت بها الطامة الكبرى ، طامة الاحتلال
البريطانى البغيض . وقد ظلت له بعد إخفاق الثورة العربية وطوال منفاه
هذه الروح القوية ، وكأن نفسه كانت من الصلابة بحيث لا تؤثر فيها
الخطوب مهما اشتدت ومهما أناخت عليه بكلا كلاها الثقيلة ، ولذلك
نراه من حين إلى حين يدعو إلى الثورة على توفيق ، ثورة تعصف به
وبأعدائه أعداء الشعب الآثمين .

وعلى هذا النحو ظلت الثورة تغلى فى عروق البارودى على الرغم من نفيه
إلى سرنديب ، وظل ينذر ويتوعد ويهدد بيوم الثورة الذى يعصف
بتوفيق وبطانته ، والذى يثار فيه الشعب لكرامته . وتلقت فى وطنه
فلا نجد أصداء لصيحاته وصرخاته ، وكأنما أذهل الناس تفوق الإنجليز
فى أسلحتهم الحربية على نحو ما أذهل ذلك آباءهم وأجدادهم إزاء الحملة
الفرنسية القديمة وعتادها الحربى ، وكانت قد بعثت فى العرب المصريين
تطلعاً قوياً إلى الأخذ بأسباب النهضة العلمية ، فمضوا يحدثون نهضة
عظيمة ، كما مضوا يحاولون مقاومة حكم الحديويين الفردى المطلق ،
وتطورت الأمور ، وأثقل كاهل مصر بالديون ، وعبثاً حاول زعماء الأمة
أن يستخلصوا من إسماعيل وابنه توفيق حقوق أمهم فى الحكم وجميع
شئونها المالية والداخلية والخارجية ، فقد ظلا سادرين فى غيبيهما
إلى أن حدثت كارثة الاحتلال البريطانى وجرد الإنجليز الشعب من جيشه

الوطني وأحلوا مكانه جيشاً هزبلاً يرأسه سردار إنجليزى وضباط بريطانيون ، ووضعوا أيديهم على كل أدوات الحكم ، وخنقوا الحريات خنقاً . ونفس الرواية كانت تمثلها فرنسا في الجزائر وتونس ، مما جعل الناس يستشعرون هنا وهناك ألماً ممضاً ، وقد أخذوا يضعون أملهم في ضروب من الإصلاح الفكرى والدينى والاجتماعى ، فظهر في تونس خير الدين التونسي الذى كان يستشعر المصير التعس لوطنه قبل نزول الفرنسيين به ، ففضى في طائفة من الإصلاحات التعليمية الدينية يريد أن يستنقذ بلاده من الحرافات وأن يهيئها للحياة العلمية الحديثة ، واستمرت إصلاحاته مطردة ، وإن كنا نلاحظ أنها لم توصل بمحاولات للإصلاحات السياسية بحيث تنشأ مقاومة سريعة ضد الفرنسيين واحتلالهم للغادر للبلاد . ونلاحظ ذلك نفسه في الجزائر ، فإنها لم تحاول مقاومة المحتل طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وشرطراً كبيراً من القرن العشرين . أما مصر فقد أخذت تعنى بالإصلاح الفكرى الدينى على نحو ما هو معروف عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ودعوته إلى الاجتهاد فى الدين والتحرر العقلى وإنكار البدع والخرافات ، كما أخذت تعنى بالإصلاح الاجتماعى على نحو ما هو معروف عن قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة . ولم تنس مصر الإصلاح السياسى وما يتبعه من المقاومة للغاصب الأجنبى ، حقاً لم تبادر إلى ذلك تواتاً ، ولكن لانكاد نشرف على نهاية القرن التاسع عشر حتى يحمل مصطفى كامل لواء مقاومة الشعبية ضد الاحتلال ، وبحق سمي الصحيفة التى أصدرها لمقاومة قوى البغى والشر والعدوان « اللواء » وهى لواء أحاله إلى مقالات نارية وخطب ملتهبة

صارخاً في وجه الإنجليز أن يجلوا عن البلاد، وتنقل في الديار الأوربية صائحاً في المحافل الدولية بحقوق الشعب المصري في الحرية والجلد والاستقلال، حتى إذا حدثت محاكمة دنشواي الجائرة لسنة ١٩٠٦ مضي يصرخ في باريس ولندن مصوراً فظائع الإنجليز وحكمهم الغاشم، وذلك أن خمسة منهم قصدوا إلى قرية دنشواي لصيد الحمام، فتعرض لهم نفر من أهلها وتصادف أن أصيب ضابط بضربة شمس أدت إلى موته، فثارت ثورة اللورد كرومر عميد الإنجليز في مصر، وأمر بأن تعقد لهم محكمة مخصصة برئاسة بطرس غالي لمحاكمتهم، فقضت بإعدام أربعة من المتهمين شنقاً وجلد سبعة بالسياط وحبس ثمانية مدداً متفاوتة. ونفذ الإعدام والجلد برأى من الأهلين تنكيلاً. وكان ذلك بمثابة نفي لإيقاظ أهل مصر وتجمعهم تحت لواء مصطفى كامل لمناضلة المحتل الباغي الطاغى في الصحف وبالحطب والأناشيد الحماسية من مثل قول حافظ تجسداً بشاعة هذا الحكم الجائر، وكانوا إذاً شنقوا شخصاً أبقوه معلقاً بحبله حتى يجلد اثنان بالسياط :

جُلدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
يتحاسدون على الممات وكأشبه بين الشفاء وطعمه لا يغذّب
موتان : هذا عاجل متنمر يرنو ، وهذا آجل يترقب
وحافظ يصور المجلودين . وهم يبصرون المشنوقين يتدلون في الحبال
فيتمنون لو كان لهم نفس المصير أنفة أن تمس جلودهم سياط العدو
الآثيم وجراً وبسالة وشجاعة ، بل إنهم ليحسدون إخوانهم المشنوقين

على الموت يريدون أن يحتسوا كأسه ، وهل أمامهم سوى موتين ،
 موت عاجل شنعاً ، وموت بطيء يتجرعونه بالسياط وغير السياط ، مما
 يسلطه عليهم المحتل الغاشم . وما زال مصطفى كامل والمصريون
 يشنون حملات شعواء على كرومر وطغيانه وظلمه الصارخ في كل
 صحيفة وعلى كل لسان مما اضطر إنجلترا إلى نقل كرومر من مصر .
 وسرعان ما يلبى مصطفى كامل نداء ربه ، فيبكيه حافظ ويكيه
 شوقي بكاء حاراً ، يصوران فيه حزن الشعب لفقده ومدى إحساسه
 بالחסارة الجسيمة لموته ، من مثل قول حافظ في وصف جنازته :

تسعون ألفاً حول نعشك خُشِعَ يمشون تحت لوائك السَّيَّارِ
 خَطُّوا بأدمعهم على وجه الثَّرى للحزن أسطاراً على أسطارِ
 أنا يوالون الضَّجيج كأنهم ركب الحَجِيج بكعبة الزَّوَّارِ
 وتخالهم أنا لفرط خشوعهم عند المصلَّى ينصتون لقارى

وكانت القاهرة قد اهتزت وارتجت حين بلغها النبأ المفجع ، فخرجت
 جماهيرها تودعه وتشيعه إلى مثواه الأخير ، والتفت الألوف المؤلفة حول
 نعشه ، وسارت من وزائه وهي تجهش بالبكاء ، مرسلة دموعاً غزيراً ،
 وتارة تضج بالصراخ والعويل ، وكأنها ركب حجيج زانح بالضوضاء ،
 وتارة يخشع الناس كأنما ينصتون لقارى يتلو آيات الذكر الحكيم ،
 فهم واجمون من هول المصائب ذاهلون ، وقد ملأ قلوبهم الحزن والجزع
 على بطل الوطنية الأول الذى قضمه الموت فى ريعان شبابه .

وكانت بريطانيا قد عقدت لسنة ١٩٠٤ اتفاقاً بينها وبين فرنسا
أقرت فيه لها إطلاق يدها في مراکش في حين تطلق هي يدها في مصر ،
ومضت فرنسا تنصب الشباك لمراكش حتى وقعت فريسة لاحتلالها
المشئوم . وما تلبث إيطاليا أن تطمع في أن يكون لها نصيبها بدورها في
الشمال الإفريقي ، فتهجم لسنة ١٩١١ بجيوشها وأساطيلها على طرابلس
وما وراءها من الديار الليبية ، ويقاومها الليبيون مقاومة عنيفة يكيلون
لها فيها كثيراً من الضربات واللطمات ، غير أن التفاوت الشاسع بين
القوتين المتحاربتين انتهى بليبيا إلى نفس المصير الذي انتهى إليه احتلال
جاراتها . وتصايح شعراء العربية في كل مكان يمجدون نضالها وما بذلت
من الدماء مسجلين على الطليان الخزي والعار لقتلهم الشيوخ والنساء
والأطفال الأبرياء ، من مثل قول حافظ في ميمية له طويلة :

عجز الطليان عن أبطالنا	فأعلُّوا من ذرارينا الحُساما
كَبَلُوهم قتلُوهم مَثَلُوا	بذوات الخِدر طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزَّمَنى ولم	يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاما
مالهم-والنصر من عاداتهم-	لزموا الساحل خوفاً واعتصاماً
أفلتوا من نار فيزوف إلى	نار حربٍ لم تكن أدنى ضراماً
إن في أضلاعنا أفئدة	تعشق المجد وتبأى أن تُضاماً
وهو يقول إن الطليان حين عجزوا عن لقاء أبطالنا جبناً وفزعاً	
سَقَوْا سيوفهم من ذرارينا وأطفالنا ندالة وخسة ، ومضوا يكبلونهم	

بالأغلال ويسفكون دماءهم ، وحتى النساء مثاروا بهن تمثيلاً فظيماً ،
 وذبحوا الشيوخ والزمى ذوى العاهات ولم يرحموا يتيم ولا طفلاً صغيراً .
 وعصف بهم الليبيون عصفاً إذ اضطروهم إلى الانسحاب والارتداد
 إلى الساحل ، ويشنى حافظ غيظه منهم بسخرية لاذعة إذ يجعل النصر
 من عاداتهم وهم يفرون على وجوههم ، ويشير إلى بركان فيزوف
 جنوبى إيطاليا قائلاً إنهم فروا منه إلى بركان عربى لا يهدأ ولا ينحمد
 ولا تسكن فورته . ويعلن أن العرب فى ليبيا وغير ليبيا سيظلون يناضلون عن
 كرامتهم إلى آخر قطرة من دماءهم ، ولن يهنوا ولن يضعفوا ولن يلحقهم
 أى ضيم أو هوان . وكتب على ليبيا ما كتب على جاراتها من احتلال
 الأجانب الآثمين .

وكان قد تزعم الحركة الوطنية فى مصر بعد مصطفى كامل صفيه
 ورفيقه محمد فريد ، فظل يصارع العدو الباغى وهو يلتقى به فى
 السجون حتى بدأ منفاه فى أوروبا لسنة ١٩١٢ ، وظل سنوات متصلة
 يختلف إلى المؤتمرات هناك ويكتب فى الصحف ويخطب فوق أعواد
 المنابر مدافعاً عن قضية وطنه دفاعاً حاراً حتى لى نداء ربه لسنة ١٩١٩ ،
 وكان الشعب المصرى قد فاض به الكيل ، فثار ثورة ضارية على الإنجليز
 وكانوا أعلنوا عليه الحماية عقب نشوب الحرب الكبرى الأولى لسنة ١٩١٤
 كما أعلنوا الأحكام العرفية وفرضوا رقابة شديدة على الصحف وكموا
 الأفواه ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها أخذ الشعب يطالب بحقه
 المشروع فى الحرية والاستقلال ورفع الحماية عنه والأحكام العرفية
 والرقابة على الصحف وجلاء العدو عن البلاد ، وكأنما كان ذلك

إيداناً بأن يثور البركان العربى الذى أشار إليه حافظ ثورة تظل تتفجر فى كل مكان تحت أقدام المحتلين الباغين. والشعب المصرى بذلك هو أول شعب عربى أضرم النضال فى القرن العشرين ضد الأعداء الطاغين ، فأخذت حممه تسيل ملتهبة ، وطم السيل فى شهر مارس لسنة ١٩١٩ وتحول إلى ما يشبه طوفاناً من مظاهرات الطلاب والعمال وأفراد الشعب عن بكرة أبيه ، وسدّت القوات الإنجليزية مدافعها ونيرانها ورصاصها عليهم ، ولكن السيل لم يتوقف بل أخذ يزداد كل يوم وأما وجهه تتدافع . ولم تلبث النساء أن شاركت الرجال فى الجهاد ، فألّفن مظاهرة كبيرة طفن فيها بالشوارع وبأيديهن احتجاج مكتوب يُردن تقديمه إلى سفراء الدول الأجنبية ، وتصدت لهن قوات العدو والغاشم ضاربة حولهن نطاقاً ومسددة بنادقها وحرا بها لصدورهن وفى ذلك يقول حافظ محيياً شجاعتهن واستبسالهن ساخرأ من قوات العدو ومسلكها المخزى المشين :

خرج الغوانى يَحْتَجِجُ نَ وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّ
 وإذا بجيشٍ مقبلٍ والخيلُ مطلقة الأعِنَّ
 وإذا الجنودُ سيوفُها قد صُوبَتْ لنَحُورِهِنَّ
 وإذا المدافعُ والبنا دق والصوارم والأَسِنَّ
 فتطاحن الجيشان سا عاتٍ تشيب لها الأَجِنَّ
 فليهنأ الجيشُ الفخو رُ بنصره وبكسرِهِنَّ
 وحافظ يصور كيف برز النساء مظاهرات محتجات تكسوهن

الحشمة والوقار ، يهتفن بسقوط الحماية وحياة الاستقلال والحرية . وهو وغيره من أبناء الشعب يشاهدون في إجلال هذا الموكب النسائي الحافل ، وما إن طفن ببعض الشوارع هاتفات حتى تصدى لمن العدو بخيله وفرسانه ومدافعه ونيرانه ، وقد صوب بنادقه لنحورهن ، وهن لا يأبهن لرصاصه وتهديده ، مع أنهن كن مجردات من السلاح ولم يكن بأيديهن سوى الأعلام والورد والريحان ، وتطاحن الحيشان : جيش النساء المصري وجيش العدو الآثم ساعات يشيب لها الولدان بل الأجنة في الأرحام ، حتى إذا كَلَّت قوى النساء عدن بأكاليل الفخار إلى بيوتهن . وحافظ يهني الجيش البريطاني بنصره المحزى وانكسار جيش النساء المصري المشرف ، في سخرية مرة قاتلة .

وتحولت ديار مصر جميعها إلى بركان كبير ، فإذا الثورة تتفجر في كل مكان وفي كل بلد كبير أو صغير ، وتظل أشهراً متوالية ، ويتصدى لها العدو الغاشم بالرصاص والمدافع ، ويتساقط الشهداء بالملئات ، وتتحول القاهرة والإسكندرية إلى مجازر تجري فيها الدماء أنهاراً ، وتتبعهما كثير من المدن ، والجميع ينادون : الاستشهاد الاستشهاد . ويقوم العدو بمحاكمات للثوار في كل مكان وينصب مشانقه ، والشعب يزداد كل يوم هياجاً وحماسة وعنفاً بالعدو ، وضحاياها تتكاثر وهو يقدمها راضياً لمطلبه الأسمى في الحرية والاستقلال ، وكأنما عاهد وطنه ألا يغمد نضاله وجهاده إلا إذا تحقق له استقلاله وسيادته ، حتى إذا كان شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ أرسل الإنجليز لجنة ملنر للتحقيق ، وأدرك الشعب ما في ذلك من مراوغة ، فظل في هياجه ومظاهراته وظل الإنجليز يعقدون

محاكماتهم العسكرية وما تقضى به من الأشغال الشاقة والإعدام ، وظلت وقائع الثورة متصلة حتى أعلن الإنجليز تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنوا انتهاء الحماية البريطانية على مصر واعترفوا بها دولة مستقلة ذات سيادة ، وكان ذلك نجاحاً كبيراً لثورة سنة ١٩١٩ وإن كانت لم تنجح في إجلاء الإنجليز عن البلاد ، وبذلك ظلوا يتدخلون في شئون مصر ، وظلت لهم السيادة فعلاً وإن ألغيت قولاً . ومن المحقق أن هذه الثورة كانت صفحة مجيدة في الجهاد والنضال سطرها أبناء الشعب المصرى الأبطال بدمائهم الزكية ، أبطال مجهولون ضحوا بأرواحهم لينال الشعب حريته وسيادته واستقلاله ، غير خافلين بذكر أو شهرة ، إنما شيء واحد الذى حفلوا به : أن يحققوا لأمتهم ما تبغيه من الحياة الحرة المستقلة الكريمة ، وقد مضوا يستقبلون الرصاص ونيران المدافع فى شجاعة وبسالة حتى امتلأت المدن الكبرى والصغرى دماء ، وكلما أمعن الإنجليز الغادرون فى القتل والحكم بالإعدام والسجن واقتراف الآثام أمعن أبناء الشعب فى التضحية وبذل المهج والأرواح . وظل ذلك أشهراً متعاقبة ، والرصاص يدوى ، والشهداء يتزاحمون على حياض الموت وحيال المشانق فى سبيل الحرية المهددة ، حتى أحالوا هذه الدورة فى تاريخ مصر العربية إلى دورة بطولة ، لا تقل عن دورات بطولاتنا التاريخية شأناً .

وإذا كنا نكثر من الحديث عن بطولات العرب فى حروب الروم والصليبيين والمغول ونلتمس فيها الفخر والقدوة المثلى فأحر بنا أن نتحدث عن بطولات المصريين فى هذه الثورة ، وكيف نهضوا بها عزلاً ،

لا يحملون شيئاً من سلاح أو عتدة سوى الشعور بالعزة والكرامة وما ينبغي أن يُردَّ عليهم من الحرية والاستقلال ، ومن المؤكد أننا حتى اليوم نستلهم هذه الثورة الدامية ، وكأنما كانت الفجر الذى انبثقت منه ثورات العرب ومقاومتهم فى كل مكان للمحتلين أو كأنها بدء تاريخهم الحى الحديث . وبحق أكثر شعراؤنا وشعراء البلاد العربية من الإشادة بأبطالها المجاهدين وما ضربوا من أروع الأمثلة فى الفداء والتضحية ، من مثل قول أحمد محرم فى استشهاد الثائرين ونحوضهم غمار النار والرصاص ملين نداء الوطن :

يمشى الشهيد على الشهيد وإنما
يمضى على أثر الرفاق ويتبع
ويح الركائب والنواعب هاجها
عادى الفراق فذاهب ومشيع
يا مصر أنت لكل نفس مطلب
جللٌ وأنت لكل قلب مطمع
تحيين بالقتل النفوس فلا المني
تطوى لديك ولا الدماء تضيع

وهو يصور كيف كان الشباب يرى مصارع أقرانه ، فلا يهدأ ذلك ثورته ، بل يشعل حفيظته ، ويتقدم بدوره لتكتب له الشهادة مثل

نظرائه . ويتكاثر صرعى الثورة ، ويتكاثر الراحلون والمشيعون ، وكل
يريد أن يفدى مصر وطنه بدمه ومهجته الغالية . ويحيى خليل مطران
أرواح هؤلاء الشهداء بقصيدة باللغة التأثير ، وفيها يقول :

تحيةً أيها القتلى وتسليماً بلغتمُ الشَّأوَ تخليداً وتعظيماً
لا يعبد المرءُ ربّاً لا ولا وطناً بمثل إغلائه القربانَ تقدماً
يحطمُ العظم منكم دون بُغيتكم فتصبرون ويأبى العزم تحطياً
ليس الشهادة إلا من يموت على حقٍّ ومن لا يبالي فيه ما سياً
للمشتري بصباه عزٍّ أمتيه ذكرٌ يديم اسمه بالتبر مرقوماً
هل نال حرية قومٌ بها جذروا وهم يبالون تقتيلاً وتكليماً
وهو يشيد بما بذل الشهداء من مهجهم بذلاً بلغوا فيه الذروة

في التضحية والفداء ، إذ قدموا أغلى ما يملكون لوطنهم المعبود ، قدموا
أرواحهم راضين ، لا يهمهم أن تحطم عظامهم ، بل إنهم ليصبرون على
هذا التحطيم ، بل لقد عقدوا العزم عليه . وذلك هو الاستشهاد
الحق الذي يستعذب فيه الشهيد كل ما يسام من عذاب حتى القتل
وسفك الدماء ، وإن أساء هؤلاء الشهداء الذين اشتروا عز أمتهم وكرامتها
بشبابهم الناضر لتكتب بالتبر ، بل إنها لتحفر حفراً في قلوب الأجيال
التالية . وحقاً لا ينال قوم حريتهم ولا يصبحون جديريين بها إلا إذا لم
يبالوا بما قد يصيبهم من تقتيل وتجريح ، وكان منهم مثل هؤلاء الشهداء
البررة .

وكانت هذه الثورة العاتية بمصر الشعلة القوية التي أضاءت للعرب طريق الثورة على المحتلين الغاصبين في ديارهم المختلفة ، وكان الإنجليز قد احتلوا العراق عقب الحرب الكبرى الأولى وأخذ العراقيون يقاومونهم منذ وضعوا أقدامهم في البلاد ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢٠ ثاروا عليهم ثورة عنيفة في الجنوب والوسط والشمال وفي أنحاء نهر الفرات المختلفة وفي النجف والكوفة والحلة والرميثة ، وفزع الإنجليز الباغون إلى الرضا والنجف والنار ، واستبسل الشعب في جهاده ونضاله استبسالاً رائعاً ، وظل الشعراء يحمسونه ويستثيرونه للنضال من مثل قول الجواهري مخاطباً الثوار :

أسيافكم مرهفةٌ وعزمكم متقيدٌ
هَبُّوا كفتكم عِبرةٌ أخبارُ من قد رَقَدُوا
هَبُّوا فعن عرينه كيف ينام الأسد
وثورةٌ بل جمرَةٌ ليعرب لا تخمد
أَجِّجْهَا آباؤهم والحرُّ لا يستعبد

والجواهري يقول للثوار إن العزم في قلوبكم والسلاح بأيديكم ، فهبوا للتنكيل بالأعداء حتى لا يكون شأنكم شأن النائم الغافل ، وهل يغفل الأسد عن عرينه وينام ؟ وإنما لثورة ملتهبة ، بل جمره مشتعلة للعرب لا تخمد ولا تنطفئ ، أشعلتها أجداد آبائهم الحربية القديمة وانتفاضة الحر الأبي على مستعبده الذي يسترقه انتفاضة تمحقه محققاً . غير أن الإنجليز خدروا العراقيين بحكومة وطنية أقاموا عليها فيصل بن الحسين

ونادوا به ملكاً على العراق في غير ملك حقيقي ، بل في ملك مزيف
يسنده جيش الاحتلال ، وظل الإنجليز الباغون يراوغون الشعب
بمعاهدات تغله وتطوق عنقه ، والمظاهرات تتوالى من حين إلى حين ،
والشعب غاضب حائق حنقاً شديداً..

وبينما كان العراقيون يقومون بثورتهم على الإنجليز واحتلالهم البغيض
لسنة ١٩٢٠ كان الفرنسيون يحاولون احتلال لبنان وسوريا ، وقد اصطدموا
بمقاومة عنيفة وخاصة في سوريا ، فإن الجنرال الفرنسي « غورو » حين
زحف بجيوشه نحوها قاصداً فتحها تصدى له الجيش السوري
في ميسلون بجوار دمشق ، وكان يقوده اللواء يوسف العظمة ، فصمم
هو ومن معه من الجيش أن يظلوا صامدين في قتال الفرنسيين حتى الموت ،
وكانت عدتهم قليلة فخرروا صرعى في ميدان الشرف والجهاد . ويقول
خليل مردم من قصيدة بصورها فيها استبساله هو ورفاقه في القتال
دفاعاً عن الوطن المقدس :

هوى وحلته حمراء من دمه

كالشمس حين هوت في ثوبها الجادى

صديان لم يروا حتى عب من دمه

والهف نفسى له ريان أو صادى

في فتية نفروا للموت حين بدا

جريدة من زرافات وآحاد

صَلَّى إِلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَجْنَدِلَةٍ
أَشْلَاوُهُمْ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَأَنْجَادٍ

وهو يقول إن يوسف العظمة نحرَّ صريعاً وحلته عاطرة بدمه كأنه الشمس تغرب في ثوبها القاني ، عطشان لم يطفى غلة ظمئه إلا دمه الغالي ، ويتحسر عليه مرتوياً وظامئاً . ويشيد بصحبه الأبطال الذين نفروا معه للنضال جماعات ووجداناً ، يريدون تفدية الوطن بمهجهم وأرواحهم ودمائهم . ومردم يدعو الله أن يتزل هؤلاء الصرعى الذين تناثرت أشلاؤهم في الأغوار والأنجاد منازل المقربين في عِلِّيَّين . وانتهت معركة ميسلون نهاية فاجعة ، فقد احتل الفرنسيون سوريا وظلوا بها حتى سنة ١٩٤٥ ، ومازال السوريون يثورون بهم ثورات عارمة حتى اضطروهم إلى الجلاء .

وكان البركان المصري قد ثار ، وظلت حممه وشعله تتدافع ، والشعراء من أمثال شوقي وحافظ يستحثون الشباب على جهاد الإنجليز مستنهضين عزائمهم في مغالبتهم ، حتى تنكشف سخابتهم السوداء عن سماء البلاد . ومن خير ما يصور ذلك قول شوقي في سنة ١٩٢٤ حين أطلقت طائفة من سُجَّناء الشباب ورُدَّت إليها حريتها ، وكانت قد وجهت إليها تهمة التآمر ضد المحتلين الباغين :

يا مصر أشبالُ العرين ترعرعت
ومشت إليك من السجون أسودا

طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبةً
 لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا
 وجد السجين يداً تحطّم قيده
 من ذا يحطّم للبلاد قيودا
 ربحت من التصريح أن قيودها
 قد صرّ من ذهب وكن حديدا
 أو ما ترون على المنابع عُدَّة
 لا تنجلي وعلى الضفاف عديدا
 والله ما دون الجلاء ويومه
 يومٌ تسميه الكنانة عيدا

وشوق ينوه بأشبال الشباب الذين خرجوا من السجون ليوثاً كاسرة ،
 ويقول إنهم يتحملون ما يتحملون من عذاب السجون في سبيل الجلاء
 الموعود ، ويألم أن يحطم السجين قيده ولا تتحطم القيود الملتفة حول
 رقاب البلاد ، قيود الاحتلال البغيض . ويسخر من تصريح ٢٨ فبراير
 لما يحمل من قيود الحماية ، وكل ما في الأمر أنه طلائها بذهب طلاء
 كاذباً ، إذ لا تزال جنود المحتل تعيش في البلاد فساداً ولا يزال يسيطر على
 أداة الحكم محتلاً ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه . ويهتف شوقي
 ستظل مصر محزونة حتى يتحقق لها الجلاء ، وإن يومه ليوم عيدها
 المأمول .

ويظل شرر البركان المصرى يتطاير فى الديار العربية ، ويسقط
بعض منه فى المغرب الأقصى ، فيثور الريف فى شماليه بزعامه
المجاهد الكبير محمد عبد الكريم الخطابى ، وسرعان ما ينزل
جيوش إسبانيا ويسحقها فى غير موقعة، وتنازله فرنسا ، ويظل نضاله
فى سبيل تحرير بلاده محتدماً من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٦ . ويضطر
بأخيرة إلى الاستسلام بعد أن أبلى هو وجنوده بلاء عظيماً ، كان له أعظم
الأثر فى اشتعال الوعي الوطنى والقومى فى المغرب جميعه ، وقد هب
كثير من الشعراء يستنهضون الشباب المغربى ويحرضونه على حرب الباغين
المعتدين بالقصائد والأناشيد الحماسية من مثل قول أبى بكر بنانى
فى نشيد يهز القلوب :

يا بنى المغرب هيا للقتال	واستعدوا للوغى قبل النزال
أنتم والله شجعان الرجال	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هبوا هبة	واضربوا وجه فرنسا ضربة
ذكرها يبقى عليها سبة	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب موتوا شهدا	لا تعيشوا تحت إذلال العدا
مزقوا الكفر وأشراك الردى	واسألوا الله انتصار المسلمين

وبنانى يصرخ فى شباب المغرب أن يتقدم للقتال متخذاً عدته من
السلاح مسجلاً ما يتصفون به من الشجاعة والبسالة ، حتى يضربوا
العدو الضربة القاضية ، وإنه ليطالب إلى الشباب الاستشهاد فى سبيل

طن المفدى وما غشيه من ذل الاحتلال وأن يمزقوا الفرنسيين شر ممزق ،
 في تعلو راية الإسلام ويتحقق لهم النصر المين .
 وما يلبث جبل الدروز لسنة ١٩٢٥ أن يثور بدوره على الفرنسيين
 رة ضارية وتثور معه دمشق وبلدان سوريا ، ويخوض السوريون
 المستعمر ثورة حامية ، يسلط فيها على الثائرين مدافعه ورصاصه
 يرانه ويرون ضوا عى الموت أمامهم ، ويترامون على النضال والجهاد
 ضحين بأرواحهم في سبيل ما يبتغون لوطنهم من حرية واستقلال .
 ثار نضالهم الرائع الشعراء لا في سوريا فحسب ، بل في جميع البلاد
 عربية ، ولشوقي تحية بديعة لهذا النضال يقول في تضاعيفها مشيداً
 بسالة دمشق وأهلها الأحرار :

لِلْأَوْطَانِ فِي دَمٍ كُلِّ حُرٍّ يَدٌ سَلَفَتْ وَدِينٌ مُسْتَحَقُّ
 وَمَنْ يَسْقَى وَيَشْرِبُ بِالْمَنَآيَا إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقَوْا أَوْ يَسْقَوْا
 وَلَا يَبْنِي الْمَمَالِكَ كَالضُّحَايَا وَلَا يُدْفِنِي الْحَقُوقُ وَلَا يُحَقِّقُ
 فِي الْقَتْلِ لِأَجْيَالٍ حَيَاةٌ وَفِي الْأَسْرَى فِدَى لَهُمْ وَعَتَقُ
 وَلِلْحَرِيَةِ الْحَمْرَاءُ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضْرَّجَةٍ يُدَقُّ
 جَزَاكُمُ وَالْجَلَالُ بَنَى دِمَشْقَ وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوَّلُهُ دِمَشْقُ
 وشوقي يقول إن كل مواطن حر يشعر بأن لوطنه عليه يداً وديناً
 ينبغى أن يؤديه من دمه مورداً أعداءه حتوفهم ، وإن الدول لا يبنوها
 ويرفع بناءها شاهقاً في السماء مثل الضحايا الذين يفدونها بمهجهم ودمائهم

مستترلين بذلك حقوقها السلبية من أيدي أعدائها الباغين . وإن قتلهم
ليقدمون للأجيال التالية حياة كريمة، ومثلهم الأسرى وما يتحملون من
ألوان العذاب ، ويقول إن للحرية باباً لا تفتح إلا الأيدي المضرجة
بالدماء ، ويحيي أهل دمشق ونضالهم الذي يجسم عزتهم وكرامتهم بل
كرامة الشرق كله وعزته .

ومنذ سنة ١٩١١ كان الليبيون يقودون حركة مقاومة عنيفة
ضد إيطاليا ، وسعرت مقاومتهم الثورة المصرية لسنة ١٩١٩ وما تبعها
من هبّ ظل شواظه متقدماً ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣١ قاد بطل طرابلس
الحالد عمر المختار المقاومة ، وأحاطها إلى مقاومة مسلحة ، وظل يقاتل
الظليان ويصارعهم حتى تمكنوا من القبض عليه وأعدموه شنقاً ، وارتكبوا
في إعدامه طرقاً بشعة متوحشة ، وكان لذلك رنة غضب وسخط بعيدة
المدى في البلاد العربية ، عبر عنها شوقي في رثائه محاولاً أن يثير الشعب
الليبي لقهر الباغين الظالمين :

رَكَزُوا رِفَاتِكَ فِي الرَّمَالِ لَوَاءً يَسْتَنْهَضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءٍ
يَا وَيْحَهُمْ نَصَبُوا مَنَاراً مِنْ دَمٍ يُوْحِي إِلَى جَيْلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءَ
جُرْحٌ يَصْبِيحُ عَلَى الْمَدَى وَضَحِيَّةً تَتَلَمَّسُ الْحَرِيَّةَ الْحَمْرَاءَ
يَأْيُّهَا السِّيفُ الْمَجْرَدُ بِالْفَلَا يَكْسُو السِّيفُ عَلَى الزَّمَانِ مَضَاءَ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَحَفْظِهِ جَسَدٌ بِبَرَقَةٍ وَسُدَّ الصَّحْرَاءُ
وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ الْعَدُوَّ أَلْقَى بِجِثَانِ عَمْرِ الْمُخْتَارِ مِنْ حَالِقٍ إِلَى الرَّمَالِ ،

وكأنما نصب به لواء يستثير به عزيمة الليبيين كي يقتصوا منه ، وياويحهم ، بل لقد رفعوه أمام أعين الليبيين مناراً يقطر دماً ، ولا بد أن يثاروا له يوماً . وإنه بلحرج في الصميم يصرخ في أعماقهم أن يلتمسوا الحرية التي لا تتحقق إلا بالتضحيات والدماء تسيل أنهاراً ، ويخاطب عمر المختار قائلاً إنه سيظل في ثراه سيفاً مسلولاً يملأ سيوف مواطنيه مضاء وعزيمة ، ويقول في ذمة الله وحفظه هذا الجسد الطاهر الموسد في تراب الصحراء .

وتظل مصر تقاوم الإنجليز مقاومة عنيفة ، وعبثاً يحاولون تشديد قبضتهم على البلاد ، إذ كانت دائمة الثورة عليهم ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٥ تزايد العنف شدة ، وسقط بعض الطلاب صرعى رصاص العدو الغادر ونيرانه ، واضطر الإنجليز إلى إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكانت بدورها مثل تصريح ٢٨ من فبراير تقوم على دفاع إنجلترا عن مصر في حالة الحرب وتقديم مصر لها موانئها وطرق مواصلاتها ومطاراتها كي تستخدمها كما تشاء ، وكأنما الدماء التي سالت أنهاراً ذهبت هباء .

ولا نصل إلى هذا التاريخ حتى ترتفع مقاومة عرب فلسطين ضد الصهيونية والإنجليز إلى الذروة ، وكان وايزمان زعيم الفكرة الصهيونية قد حصل في سنة ١٩١٧ على وعد بلفور الذي تعهد به الإنجليز الآثمون أن يكفلوا للصهيونيين وطناً قومياً في فلسطين ، ووضعت الحرب الأولى أوزارها ، وثبتت البريطانيون فيها أقدامهم باسم الانتداب ، وجعلوا على رأس إدارتهم لها مندوباً سامياً يهودياً ، أخذ يشجع هجرة اليهود إلى فلسطين . وتنبه العرب الفلسطينيون إلى ما يبيت لهم ، فأخذوا يثورون على الانتداب البريطاني ووعد بلفور منذ سنة ١٩٢٠ ، ولكن الاستعمار

والصهيونية مضياً في مؤامرتيها الدنيئة ، فأنشئت وكالة يهودية بفلسطين لتنظيم الهجرة ، واحتلَّ اليهود مدن الساحل الفلسطيني ، وأنشأوا بلدة تل أبيب بجوار يافا وجعلوها مقراً لوكالتهم ، ولم يلبثوا أن شكلوا جماعات إرهابية عسكرية ، والفلسطينيون يزداد إحساسهم كل يوم باستفحال الخطر ، وتزداد مقاومتهم له ، ويؤيدهم العالم العربي ، غير أن حكوماته كانت لا تستطيع أن تقدم لهم شيئاً ، فقد كانت موزعة بين النفوذ البريطاني والفرنسي والإيطالي ، وكانت مشغولة بمشاكلها ، فلم تستطع أن تقدم لعرب فلسطين أى عون ، وظلوا وحدهم يقاومون الاستعمار البريطاني والصهيونية اليهودية ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ تحولت مقاومتهم إلى ثورة عسكرية مسلحة ، دمرت كثيراً من المنشآت العسكرية البريطانية . ونصب الإنجليز مدافعهم يحصدون زهرات الشباب اليانعة ، كما نصبوا سجونهم ومحاكمهم العسكرية لا في هذه السنة فقط بل منذ العقد الثالث من هذا القرن ، والشباب يستبسل في مقاومته باذلاً مهجه وأرواحه الغالية فداءً عزيزاً لوطنه المقدس . وتتجسم في أثناء ذلك بطولات رائعة ، لعل إبراهيم طوقان شاعر فلسطين خير من صورها ، وتتلحق في ديوانه صفحات هذا التصوير ، ومن أروع ما نظمه قصيدته في تصوير الفلسطيني الذي يحمل روحه على راحته فداءً لوطنه ، وفيها يقول :

هو بالباب واقفٌ والردي منه خائفٌ

فاهدئ يا عواصفُ نجلا من جرائته

صامتٌ لو تكلمنا لفظ النار والدماء
 قل لمن عاب صُمتَه خُلق الحزم أبْكَما
 وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما

وهو يقول إن الفدائي لا يهاب الردى، بل الردى هو الذى يهابه ويهاب جراته وشجاعته التى تشبه إعصاراً ملتهباً ، وإنه ليطرق رأسه مصمماً على القتل والفداء لا يتكلم ، ولو تكلم لكان كلامه ناراً ودماء . إنه لا يهتم الكلام إنما يهتم العمل والنفوذ إلى غايته المثل من التضحية والقتل والقتال . وظنت بريطانيا أنها تستطيع وقف المقاومة الفلسطينية بوضع مشروع تقسيم فلسطين فى سنة ١٩٣٧ ولكن العرب الفلسطينيين ازدادت مقاومتهم واتسع نطاق المعارك ، فاضطرت بريطانيا إلى إعلان تخليها عن مبدأ التقسيم الأثيم .

وقد توقفت الحركات الثورية العربية فى فلسطين وغير فلسطين مع نشوب الحرب العالمية الثانية إلا ما كان من حركة رشيد الكيلانى فى العراق لسنة ١٩٤١ على أنها سرعان ما أخفقت ، وكأنما كانت البلاد العربية تنتظر نتيجة الحرب ، حتى إذا انتهت أخذ كل بلد يعد العدة للانقضاض على المستعمر وطرده من البلاد ، وأول بلدين تحقق لهما ذلك سوريا ولبنان ، وكانت فرنسا قد أعلنت استقلالهما فى سنة ١٩٤١ مراوغة وكسباً للوقت ، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٦ نالتا استقلالهما وردت إليهما حريتهما المفقودة ثمرةً لجهادهما المحتدم . ومضت العراق تكافح الإنجليز ، ويسول لهم شيطانهم فى سنة ١٩٤٨ عقد معاهدة معها ، ويثور الشباب

ويسلط الإنجليز عليه نيرانهم ورصاصهم ، ويسقط في الثورة كثير من الشهداء ، وينوء الجواهرى ببطولتهم في إحدى قصائده مصوراً للشباب العراقى الخطوب التى تنتظره في طريق النضال ، يقول :

يوم الشهيد طريق كل مناضلٍ وغرٌّ ولا نُصْبٌ ولا أعلامٌ
في كل منعطفٍ تلوح بليَّةٌ وبكل مفترقٍ يدبُّ حِمَامٌ
وحياض موت تلتقى جنباتها وعلى الحياض من الوفود زحامٌ
يوم الشهيد بك النفوس تفتحتُ

وَعِياً كما تفتح الأكمام
حملوا الرصاص على الصدور وأوغلوا

فعلى الصدور من الدماء وسام

وهو يصور هذا اليوم الممتد في جميع أقطار العالم العربى ، يوم نضال الشهيد حتى الموت ، ويقول إنه يوم وعر مسالكه ، ففى كل منعطف وكل مفترق طريق يقف الموت ، والشباب يتزاحم على حياضه . وإنه ليوم العروبة الذى تفتحت فيه الآمال تفتح الأكمام عن الأزهار ، والشباب يعرض صدوره للرصاص ، وتسيل الدماء أوسمة مجد وعزة وحرية وكرامة . وكانت مصر قد انتفضت بدورها وأخذ الشباب ينزل بالجيش المحتل فى القنال خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، ويزلزل الأرض من تحت أقدامه زلزالا .

وأخذت الصهيونية في أثناء الحرب العالمية الثانية تنشط في الولايات المتحدة مستغلة تنافس الحزبين الديمقراطي والجمهوري في الحملة الانتخابية ، مما دفع ترومان إلى إصدار بيان دعا فيه إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية ، واستطاع الصهاينة أن يؤسسوا قوة عسكرية كبيرة تابعة للوكالة اليهودية . وفي سنة ١٩٤٤ قامت الجامعة العربية ، واهتم ميثاقها بمشكلة فلسطين ، وسرعان ما قررت مقاطعة يهود فلسطين اقتصادياً ، وحاولت جاهدة استثارة الضمير الأمريكي والإنجليزى في استشعار حقوق عرب فلسطين ولكن دون جدوى . وأخذت بريطانيا تعمل على خداع العرب ، فتخلت عن القضية لهيئة الأمم وقدمت في سنة ١٩٤٧ لجنة دولية للهيئة تقريراً يقترح تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية . وأثار هذا الاقتراح الذى وافقت عليه هيئة الأمم ثائرة الأمة العربية ، فنشبت المظاهرات في القاهرة وغيرها من دول العرب الكبرى وكونّ عرب فلسطين جيش التحرير العربى ، وأعلن الصهاينة قيام دولتهم اليهودية : إسرائيل . وأصبح الفلسطينيون وجهاً لوجه أمام الإرهاب الصهيونى ، وناضل عرب فلسطين منذ أول سنة ١٩٤٨ نضالاً دمويّاً محتدماً عاونهم فيه أفواج جيش الإنقاذ الذى درّب في سوريا ومتطوعون كثيرون من الأقطار العربية . ووضع الإنجليز أيديهم في أيدي اليهود ، فجلّوا عن تل أبيب والمناطق اليهودية ليستولى الصهاينة على المطارات والمرافق العسكرية ، على حين ظلوا يحتلون المناطق العربية ، وهجم اليهود على الفلاحين في قرية دير ياسين وذبحوا من أهلها الودعين مئات وكذلك فتكوا بقرية ناصر الدين ، وتوالت الفظائع الصهيونية الوحشية

فهاج الرأي العربى العام وطالب حكوماته بالتدخل العسكرى لإنقاذ فلسطين . ودخلت الجيوش العربية الديار الفلسطينية وتقدمت فى جميع الميادين على الرغم من أنها لم تكن كاملة الإعداد ولاتامة التنظيم ، وبادر مجلس الأمن بمساعى الولايات المتحدة وإنجلترا إلى الانعقاد وأعلن وقف القتال وقيام هدنة بين الطرفين . وانتهز الصهيونيون الفرصة للاستعداد وتعزيز قوتهم الحربية ، وعاد مجلس الأمن للنظر فى مشروع تقسيم جديد لفلسطين بين العرب واليهود ورفضه عرب فلسطين والجامعة العربية ، واستؤنف القتال فى شهر يولية ١٩٤٨ بكل الجبهات ، وانتصر العرب فى كثير من المواقع ، غير أن القوة الأردنية انسحبت من بلدتي اللد والرملة فاختلها اليهود ، وأحدثوا فيها مجزرة وحشية هائلة ، وانسحبت فى أثناء ذلك القوة العراقية ، وكذلك انسحب جيش الإنقاذ فى الشمال ، واستولى اليهود على صفد والناصرة ، وكثر اللاجئين والمشردون عن ديارهم وأوطانهم . وركزت القوات اليهودية حملتها على القوات المصرية لإجلائها عن النقب غير أنها صمدت فى مواقعها صموداً مشرفاً ، ولم يلبث مجلس الأمن أن قرر وقف القتال فى ١٥ من يولية لسنة ١٩٤٨ . وظلت القوات المصرية تستبسل فى المقاومة إلى أن وافقت مصر على الهدنة فى أوائل سنة ١٩٤٩ .

وكان عرب فلسطين فى كل هذه المعارك يكافحون اليهود ويقاومونهم ويقدمون أرواحهم ودماءهم لوطنهم ضارين أروع الأمثلة فى الجهاد والنضال ، من مثل عبد القادر الحسينى شهيد القسطل الذى طالما دوخ اليهود بمن كانوا معه من الفدائيين ، وأنزل بهم ضربات قاصمة .

وكان من بين هؤلاء الأبطال الفلسطينيين شعراء غدوا الثورة ببطولتهم الحربية وأشعارهم الحماسية ، مثل عبد الرحيم محمود الذي كان يعمل بالتدريس في فلسطين ثم في العراق ، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٨ لي داعي الجهاد ملتحقاً بجيش الإنقاذ ، ومازال يخوض مع العدو المعارك وهو يتغنى بالأشعار المثيرة ، حتى سقط في معركة الشجرة بـجبال الجليل كاتباً بدمه على ثرى وطنه الحبيب أروع قصيدة مؤثرة ، محققاً بذلك ما تمناه في بعض قصائده من استشهاد في سبيل بلاده ، يقول :

أرى مقتلى دون حتى السليب	ودون بلادى هو المبتغى
يلد لأذنى سماع الصليل	ويبهج نفسى مسيل الدما
وجسم تجندل فوق الهضاب	تناوشه جارحات الفلا
كسا دمه الأرض بالأرجوان	وأثقل بالعطر ريح الصبا
وعفر منه بهى الجبين	ولكن عفاراً يزيد البها
لعمرك هذا مات الرجال	ومن رام موتاً شريفاً فذا

وهو يتمنى أن يقتل ويسفك دمه دفاعاً عن حقوق بلاده السلية ، وقد أصبح يستشعر في قوة غريزة الثأر وحب الدم المسفوح والتشفي برؤيته حتى ليفرحه صليل السلاح ومسيل الدماء ، وأن يرى من جوله الشهداء وقد تناثرت أشلاؤهم وتناهبتا نسر السماء ووحوش الأرض ، وسالت دماؤهم القانية وتناهبت رياح الصبا عطورها ، وتعفر جبينهم البهى بالتراب عفاراً يزيد في بهائه وجماله ، فذلك في رأيه هو الموت الشريف موت الرجال الأحرار .

وكان الشعب المصرى يعانى من الحكم الفاسد ومن الأحزاب ، التى داست كرامة الوطن فى سبيل المآرب العاجلة ، والتى مضت تكمم الأفواه وتحد من الحرية ممكنة لحواشى قصر عابدين من التغلغل فى الحكم ، مترامية على حواشى قصر الدويارة الإنجليز ، متغافلة عن مطالب الأمة فى الاستقلال والحياة الحرة الكريمة . ويبلغ الحق الذروة وتموج الصدور بالحفيظة ، وإذا ثورتنا المجيدة تنبثق فى ٢٣ من يولية لسنة ١٩٥٢ معبرة عن إرادة الشعب ، ويتهوى فاروق والأحزاب الفاسدة والاستغلال والإقطاع ، وتُرد إلى الشعب حرته ، ويتخذ الأسباب لحياة اشتراكية سليمة ، ويتغنى شعراء مصر بالثورة مبتهجين من مثل قول عباس العقاد :

أهلا بنيروز وليد أهلا بميلاد سعيد

يوم جديد قلت بل عهد على مصر جديد

عهد تضان كرامة فيه وتتبعها جهود

لا تستذل ولا تسام على الهوى سوم العبيد

ما كان غير الصالحين لهم قرار فى الوجود

مصر الكنانة كعبة قرّت على حصن وطيد

والعقاد يتمثل الثورة عيداً كأعياد النيروز أو بعبارة أخرى كأعياد

الربيع ، وإنه لميلاد حياة جديدة وعهد مشرق باسم تضان فيه كرامة

مصر التى طالما أهدرها القصر والإنجليز والحكام الفاسدون ، عهد تتحرر

فيه من الذل والهوا والعبودية . ويقول إنه لن يعيش بمصر بعد الآن

سوى العاملين النافعين ، وإنها لخليقة بحياة كريمة ، إنها كعبة مقدسة ، وقد استقرت على أسس وطيدة .

وكان الجيش البريطاني في سنة ١٩٣٩ قد اقتحم ليبيا ، ولم يلبث الإنجليز أن قسموها مع فرنسا وأمريكا إلى ثلاث مناطق ، لكل منهم منطقة ، فللإنجليز برقة وطرابلس وفرنسا فزان ولأمريكا بعض القواعد الجوية في طرابلس . ومازالت ليبيا بعد الحرب تناضل من أجل استقلالها حتى إذا كانت سنة ١٩٥٥ جلت فرنسا عن فزان ، وبقيت لأمريكا وإنجلترا بعض القواعد الجوية ، وانعقد أمل الشعب العربي الشقيق على الخلاص من هذه الاغلال إلى أن قامت ثورة الفاتح في سبتمبر لسنة ١٩٦٩ ، فردت إلى الشعب حريته ، محطمة كل ما كبله به الاستعمار الآثم من أغلال ، ومحقة له كل ما كان يطمح إليه من حياة عزيزة كريمة .

وإذا التفتنا إلى أقصى الشمال الإفريقي وجدنا الملك محمداً الخامس يقود شعبه لنضال فرنسا نضالاً عنيفاً ، عن طريق المظاهرات والتجمعات والمقالات النارية في الصحف والخطب الملتهبة ، وكانت له مواقف عظيمة ضد الاستعمار الفرنسي جعلت العدو ينفيه عن دياره ، وثارت البلاد ثورة ضارية فاضطرت فرنسا إلى أن تعيده إلى وطنه ، وأن تعطى المغرب استقلاله سنة ١٩٥٢ إذ أخفقت في كل ما اتخذته من وسائل القمع والإرهاب . ونبثق في أثناء هذا النضال بشعر كثير يستنهض الشعب للمقاومة والثورة على العدو الغاصب من مثل قول محمد الجندى :

عن يميني وعن شمالي قيود وأمامي جيل معنى شريد

يتلاشى مع الزمان ويفنى ويعانى ما لا يعانى العبيد
ضرب السد حوله ورماء بسهام الردى رقيب عتيد
وكأن المغير أهضى عقوداً مع هذا الزمان ليست تبيد
وكأن الشباب منا هباء ونفوس الأحرار شيء زهيد

وهو يصور القيود والأغلال التي وضعها المحتل الغادر حول الشعب
واغتصابه لطيبات أرضه ، حتى غدت أفراده في ديارها مشردة تعاني
من رق العبودية ، وقد ضرب من حولها نطاقاً . وما يزال يرميها بسهام الموت
وكأنما عاهد الدهر عهداً لا ينتهى أن يظل مسيطراً متحكماً ، وكأن
الشباب ليس شيئاً مذكوراً ، وكأن نفوس الأحرار لا قيمة لها ولا وزن .
ومن قديم كانت تونس تجاهد فرنسا جهاداً مستميتاً ، وتغنى جهادها
وآلامها شاعرها المبدع الشابي ، وله أشعار كثيرة يصوبها حراباً مسمومة
إلى صدر المستعمر الغاشم ، مستهضاً هم شعبه لكفاحه ، مستثيراً
حميته من مثل قوله الدائر على كل لسان :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوفها واندثر
كذلك قالت لي الكائنات وحدثنى روحها المستتر
ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر

إذا ما طمحت إلى غايةٍ لبستُ المنى ونخلتُ الحذر
ولم أتخوَّف وعور الشُّعاب ولا كِيَّةَ اللهب المستعر
ومن لا يحب صعود الجبالِ يعيش أبداً الدهر بين الحُفَرِ
والشابي يقول إن الحياة الحرة إرادة ، والشعب لا يناها إلا إذا صحت
إرادته على أن يحياها ، وحينئذ ينزل القدر على إرادته المصممة ، فينجلي
الليل الكثيف وينجاب سواده عن الأفق وتتخطم القيود والأغلال ،
ويقول إن من لم يحسن الحياة إحساساً متعمقاً يصبح فيها هباء لا اسم
له ولا ذكر . ويصبح : هكذا حدثته البكائنات هامة في وعيه ،
بل إن الريح لتدمدم بذلك وترجرج في كل مكان قائلة إنها إذا ما طمحت
إلى غاية وضعتها نصب عينها مصممة على الظفر بها نافضة عنها كل
خوف وحذر ، فلا الشعاب الوعة تخافها ولا دفعة النار الملهبة تصدها .
وتلك سنة الحياة ، كل شخص وإرادته وعزيمته وهمة ، فمن لم يحب
تسُم القمم وارتقاء الذرى عاش في الحفر ومهاوى الحياة عيشة
الدليل المهين .

وتمضى ثورتنا المجيدة في بناء حياتنا المصرية الاشتراكية ، وتعلن حرباً
شعواء على المستعمر الغاصب لديارنا منذ سنة ١٨٨٢ وتصمم على إجلائه ،
ويجلو خانعاً عن بلدنا ، فيتحقق أمل عظيم ، بل حلم رائع ، طالما حلم
به الشعب . ويصبح يوم هذا الجلاء عيداً عظيماً من أعيادنا ، ويلحقه
عيد ثان هو عيد تأميم قناة السويس ، وتجزع إنجلترا وفرنسا وعميلتهما إسرائيل
ويهجمون هجومهم الغادر على بور سعيد لسنة ١٩٥٦ ويهب أهلها

شيباً وشباناً ونساء للنضال ، وسرعان ما يتزلون بالأعداء صواعق غضبهم
ويترنحون من هول الضربات واللطمات المميتة التي كالألغام أبطال
بور سعيد . وما يلبثون أن يجمعوا قلوبهم ويولوا الأدبار إلى غير مآب ،
إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد ركبهم الاندحار والذل والعار .
وكان الشعراء في هذه الأثناء يرمونهم بشواظ أشعارهم الملهب
من مثل « دع سمائي فسمائي محرقة » لكمال عبد الحليم ، ونشيد « أنا
النيل مقبرة للغزاة » لمحمود حسن اسماعيل ونشيد « الله أكبر فوق
كيد المعتدى » لعبد الله شمس الدين . وهي أناشيد تصور ثبات المصريين
في المعركة حتى الموت ، وحتى يعصفوا بالأعداء ويذيقوهم وبال عدوانهم
الاثيم . ونظم كثير من الشعراء قصائد تصور هزيمة الأعداء الساحقة
ورحيل أشباحهم الدنسة عن البلاد ، والعار يجللهم ، فقد جاءوا يكشرون
عن أنيابهم الحداد ، فحطمناها تحطيماً باستبسالنا وزيادنا عن
وطننا زياداً بذلنا فيه المهج فداء له ولحرية وعزته . حق في يدنا وقوة
في نفوسنا مزقنا بهما العدو تمزيقاً ، وكان أول تمزيق مميت له ما ألحقناه
بجنود المظلات أو بعبارة أخرى ما ألحقته بور سعيد بهم ، فقد قنصت
سربهم الأول وأنت عليه ، واستدارت للغزاة اللثام تحصد رؤوسهم حصداً ،
وكأنما كانت شباكاً كبيرة لا يلبثون أن يتعثروا في خيوطها ويصادوا
صيداً ويذبحوا ذبحاً . وذلك تاريخ مصر ، مقبرة دائماً للغزاة على مر العصور
لما يحرس حدودها وأطرافها من أبناءها الشجعان الأبطال . وصاح في
وجوه الأعداء كثير من شعراء البلاد العربية ، يضرمون حفيظة الشعب
ويلهبون نضاله تارة بالقصيدة وتارة بالشعر الحر الحديد على

شاكلة منظومة نزار قباني التي وضعها في شكل رسائل من جندي مصرى
إلى أبيه أرسلها من ميدان المعركة حيث تترج البطولة بالجراح وبالسلاح،
وتمضى رسالته الثالثة على هذا النمط :

الآن أفنينا فلول الهابطين

أبتاه لو شاهدتهم يتساقطون

وترى قراصنة البحار الإنكليز

كثمار مشمشة عجوز

يتساقطون . . . يتأرجحون

تحت المظلات الطعينة مثل مشنوق تدلى في سكون

وبنادق الشعب العظيم تصيدهم زرق العيون

لم يبق فلاح على محراثه إلا وجاء

لم يبق سكين ولا فأس ولا حجر على كتف الطريق

إلا وجاء

ليرد قطاع الطريق

ليخط حرفاً واحداً حرفاً بمعركة البقاء

والرسالة تعلن فناء الهابطين من المظلات والأسطول الإنجليزى

وهم يتساقطون كأوراق الخريف وبنادق الشعب تحصدهم في الأرض

كما تحصدهم في الجور ، الشعب المصمم ذو الإرادة الجبارة الذي لم يبق منه فلاح إلا وجاء ، ولم يبق عند مصرى سكين . ولا فأس ولا حجر إلا استخدمه في المعركة العنيفة ، ليرد قطاع الطريق ويسحق ضلوعهم سحقاً ، وليخط حرفاً مضيئاً منيراً في معركة البقاء .

وظل العراق محتلاً بالإنجليز الغاشمين إلى أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٨ ثم ثورة فبراير سنة ١٩٦٣ فنفض عنه الاحتلال وأخذ في بناء حياته بناء مستقلاً ، إذ ردت عليه حرية وسيادته . وكان البركان الجزائري قد تفجر منذ سنة ١٩٥٤ وأخذ يقذف بحممه وسيوله في وجوه المستعمر الفرنسي وجنوده يشويها شيئاً ، بل لقد أخذ يحرقهم في أتونه حرقاً ، وامتد الحرق والشئ ، ولهب البركان يزداد كل يوم أواره ، والمستعمريين جنونه ويرسل بالجيش تلو الجيش ، وتجرع أمر غصص الحرب والقتال ، وكأنما تحولت الجزائر إلى مقبرة كبيرة لهم ، بل إلى جحيم يأتي عليهم جماعات وأفراد ، وأبطال الجزائر ثابتون مستبسلون قد أرنصبوا حياتهم وبذلوا ليحققوا لوطنهم استقلاله وسيادته المهددة . ولا نصل إلى سنة ١٩٦٢ حتى تهد قوى البغي والعدوان ، ولا يجد المستعمر أمامه سوى الاستسلام ، فيرد صاغراً إلى الجزائر حريتها واستقلالها ، ويخرج منها مهزوماً مدحوراً إلى غير رجعة . وكان شعراء الجزائر يصرمون لهب هذا النضال المجيد بأشعار حماسية نارية من مثل قول محمد الصالح على لسان ثائر :

يا رفاق في الذرى في السجن في القبر وفي آلام جوعى

يا جنون الثورة الحمراء يجتاح كياني ومغارات ربوعى

أقسمتُ أمي بقيدي بجروحي سوف لا تمسح من عيني دموعي
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقاد الجموع
وهو ينادي رفاقه في المعركة الممتدة إلى ذرى الجبال وفي أيام سجنه
وعذابه كي يضربوا العدو الضربة القاضية ، وينادي جنون الثورة
الدائمة الذي يجري في كل كيانه وفي كل مغارات بلاده حتى يثار
لكرامة الوطن السليبة . ويقول إن أمه أقسمت بمقدسات أبطال المعركة
واستبسالهم ، أقسمت بقيودهم وآلامهم وجروحهم ، أن لا تمسح من عينه
الدموع ، وأن تغسل الجرح الدائم مستبشرة ، وتتحول بدورها مثل كل
جزائرية إلى شعلة تلهب أحقاد الشباب . ويرتفع صوت شعراء العرب
في كل قطر محمسين الجزائريين وموقدين حميتهم مهددين المستعمر
ومتوعدين منذرین من مثل قول الجواهري شاعر العراق :

دعى شَفَرَاتِ سِیُوفِ الطَّغَاةِ تَطْبُقُ مِنْكَ عَلَى الْمُقْطَعِ
فَأَنْشُودَةُ الْمَجْدِ مَا وَقَّعَتْ عَلَى غَيْرِ أَوْرَدَةٍ قُطِّعِ
وَحَلَّ النَّفُوسَ الْعَذَابُ الصُّلَابِ تَسِيلُ عَلَى الْأَسْلِ الشُّرْعِ
فَسَارِيَةُ الْعَلَمِ الْمُسْتَقْبَلِ بَغِيرِ يَدِ الْمَوْتِ لَمْ تَرْفَعِ
جَزَائِرُ يَا جَدَثَ الْغَاصِبِ بَيْنَ بَوْرَكْتِ فِي الْمَوْتِ مِنْ مَرْبَعِ
جَزَائِرُ كَيْلِي بِصَاعِي حَقُودِ عَمٍ فِي ضِرَاوْتِهِ مَقْدَعِ
والجواهري يريد للجزائر أن تقدّم على مذبح الحرية نفسها لتنوشها

السيوف ، ولتحيل بعض أبنائها أشلاء ، فالأثم لا تنال المجد إلا إذا
 قدّمت للقتل أفلاذ أكبادها ، وسالت دماؤهم المملوءة قوة وصلابة
 على أسنة السيوف والرماح ، فعلى أشلائهم وبرك دمائهم ترفعُ سارية
 العلم المستقل الظافر . ويهتف بالجزائر أنها تحولت قبراً كبيراً للفرنسيين
 الغاصبين ، وهي تكيل لهم الصاع صاعين ، صاعى حقوق عمّ في
 ضراوته ، يطعن ، فيصمى ، يميناً وشمالاً . وتنتصر الجزائر وتأخذ في بناء
 حياتها الحرة الاشتراكية الجديدة .

وتدور بالعرب الأيام حتى يونه سنة ١٩٦٧ وتعتدى إسرائيل على
 مصر والأردن وسوريا والحماسة تبلغ الذروة ، وكل عربي يؤمن بالنصر
 واسترداد الوطن المقدس الذي اغتصبه الصهيونيون . وارتفع صياح الشعراء
 يحمسون ويؤججون لهيب النضال في نفوس المحاربين بعد أن رفض
 الشعب العربي بكل قوته الهزيمة مبصمماً منذ التاسع من يونيو أن يمحو
 آثار العدوان محواً ، وفي ذلك يقول محمود حسن إسماعيل :

سيظل ينهش في غروقي ثارها حتى تكبر للصباح ديارها
 حتى يداهمها الضحى بيمينه وبها يفكُّ من القيود إزارها
 حتى يهلل فرحةً شهداؤها للنور ، يحمل فجّره أحرارها
 حتى تزمجر بالفيالق حومة عربية لا يستريح أوراها
 حتى يبيد الغاصبون بأرضها وتبيد فوق رفاتهم أوزارها
 فالشاعر موتور لفلسطين ، ويقول إنه سيظل يأكل حقد الثار عروقه ،

حتى تتألق بشائر الصباح المشرق بالنصر الحاسم في أرضها ، وتترامى أضواء ضحاها في جنبات ديارها ، وشعلة الحرية تحرق قيودها بين تهليل الشهداء وفرحهم بالنور الغامر الذي فجّره أحرار العروبة الأباة ، وفيالقهم وكتائبهم تزار وترجر مدمرة للغاصبين الآثمين وقاضية قضاء مبرماً على أوزارهم وآثامهم ومأخية لها ولهم من الوجود محوياً .

وراحت إسرائيل تتبجح بانتصارها ومعروف أن انتصاراً في معركة أو معارك أو حتى في حرب لا يعنى فرض تاريخ جديد على منطقة وشعبها الكبير ، بل لابد لهذا الشعب من الانتصار الحاسم . وانتهزت إسرائيل الفرصة فضت تتحدث عن التسوية والمفاوضات المباشرة متعامية عما يؤدي إليه ذلك من كارثة القبول بالوجود الصهيوني والاعتراف بكيان إسرائيل السياسى وسيادتها الإقليمية . وإن العرب في كل بلد لمصممون على مقاومة مخططات إسرائيل والصهيونيين والمضى في الحرب والقتال ، حتى ينتزعوا من أيديهم قهراً ما سلبوه واغتصبوه . وقد عرضت القضية على الأمم المتحدة غير أنها أدخلتها في متاهات وسرايب تبعث القلق وتدعو إلى الحذر ، واستقر في نفوس العرب أن الحق المسلوب لا يردده إلا أهله .

ومن التطورات العظيمة التي حدثت بعد النكسة أن عرب فلسطين اضطلعوا بالقضية فعادت إلى أيديهم ، وسرعان ما تبلورت في أعمال المقاومة العسكرية التي ينهض بها الفدائيون البسلاء ، مما جعل إسرائيل تستغيث من حين إلى حين بمجلس الأمن باكية مولولة معبرة عن الذعر والهلع الذي يصبّه في نفسها الفدائيون الفلسطينيون ، وقد جاءوها

من الأردن ومن كل فجٍّ يحملون في قلوبهم غضباً كالسنة النار على من
سهبوا أرض الآباء والأجداد وأخرجوا أهلها من ديارهم إلى العراء، حيث
لا مأوى لهم سوى البؤس والضمك والتشرد، بعد أن حولوا بعض القرى
إلى مجازر وحشية كقرية دير ياسين وقرية كفر قاسم، وقرى أخرى محوها
من الوجود كقرية زيتة وقرية عمواس .

ويا للهول المروع ! إنها قصة الوطن المسلوب ودم أهله المسفوك وطرده
المتبقين ليصبحوا لاجئين مشردين يعيشون في الخيام ، أو إذا
استطاعوا ، في أكواخ من اللبن كالحرايات المهجورة ، حتى يحفوا وتذوى
أعوادهم ، وكأنما يريدون لهم أن يعيشوا بدون حياة أمواتاً ، فراشهم الرمل
ولحافهم السماء . ومن ظلوا معهم ولم يهاجروا بعد سنة ١٩٤٨ سخروهم
في أعمالهم بأجور زهيدة ، حتى يستكينوا ويدلوا ، وكل من حاول أن
يقف في طريقهم دون ثمار أرضه وطيباتها مزقوه إرباً ، أو ألقوه في غياهب
السجون . وظنوا أنهم يقضون بذلك على الروح العربية ، ونخاب ظنهم
وفألمهم ، فقد دقت ساعة القصاص ، وهب الجليل الفلسطيني الحديد
الذي عاش المحنة غزيراً عن دياره ، هب بعد نكبة سنة ١٩٦٧ ليرد
كيد العدو في نحره ، وقد صمم على الثأر لأهله ووطنه المباح حتى
تترنح إسرائيل في برك من الدم وتستسلم خانعة متخاذلة . ومما يهز نفس
كل عربي أن الجليل الفلسطيني ، الذي نشأ أسيراً في إسرائيل يجوع ويعرى
ويعذب في زنايات السجون أشنع ألوان التعذيب ، ظل صامداً لا يذل ولا
يهون ، بل لقد مضى يقاوم ويتحدى منتصب القامة مرفوع الهامة ، يتقدمه
صف مرصوص من الشعراء يهادر ويزججر ، كسيل من النار ، بل

كلهب عاصف يدوى ويدمدم غاضباً لوطنه وثائراً مع الثوار في كل
 بلد على الاستعمار ، مع ثوار الجزائر وثوار العراق واليمن وكوبا ، ومع
 ثورة مصر وجلاء الغاصب والسدا العالى ومعركة بور سعيد . ويعنف
 بهم الصهيونيون ويزجون بهم في السجون ، ويظلون يقاومون في إصرار هائل
 وهم في القيود والسلاسل لا يبالون ولا يهابون ، بل كل يوم يزدادون غضباً
 وحمية وحقدًا ومرارة ، فلا غرابة أن تستحيل أشعارهم نيراناً ملتهبة مستعرة
 على نحو ما نقرأ في أشعار توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش ،
 ولأولهم منظومة بعد الخامس من شهر يونية سنة ١٩٦٧ يقول فيها :

يا بلادى أمس لم نطف على حفنة ماء

ولذا لن نغرق الساعة في حفنة ماء

من هنا مروا إلى الشرق غماماً أسوداً

يطشون الزهر والأطفال والقمح وحبّات الندى

وينضّون عداوات وحقدًا وقبوراً ومُدَى

من هنا سوف يعودون وإن طال المدى

لا تقولوا لي انتصرونا

إن هذا النصر شر من هزيمه

نحن لا ننظر للسطح ولكننا نرى عمق الجريمة

إننا للمرة الألف نقول :

لا وحق الضوء

من هذا التراب الحر لن نفقد ذره
 إننا لن ننحنى للنار والفولاذ يوماً قيد شعره
 كَبُوة هذى وكم
 يحدث أن يكبو الهمام
 إنها للخلف كانت خطوة
 من أجل عَشْرِ الأمام

وزياد يقول لبلاده لا تياسى لم تغرق بعد قيام إسرائيل في سنة ١٩٤٨
 ولن تغرق في سنة ١٩٦٧ وكيف تغرق في حفنة ماء ؟ لقد مروا
 بديارنا غماماً مظلماً يطئون كل مافيه ويسيلون عداء وحقداً وموتاً وخناجر
 مسمومة ، ولكنهم سيعودون مدحورين مهزومين وإن طال الزمن . ويتجه
 للصهيونيين قائلاً : لا تصيحوا انتصرنا فإن نصركم في حقيقته هزيمة
 بل شر من هزيمة ، لما وراءه من دوافع الجريمة ، وسنظل نصرخ مقسمين
 بالضياء الباهر أننا لن نفقد ذرة من تراب أرضنا الحر ، وإن نطأ طي
 الرأس للنار والحديد ، إنها كبوة وقد يكبو الهمام ، وإن كانت خطوة
 للخلف فإنها استعداد لقفزة تبلغ عشر خطوات إلى الأمام .

ويصدر سميح القاسم عن هذا الصمود العاتى في منظومته عن
 الفدائي : وفيها يهتف ، وقد استشهد فدائي بإحدى المعارك :

خَلَّوْا الْقَتِيلَ مَكْفَنًا بِشِيَابِهِ

خَلَّوْهُ فِي السَّفْحِ الْخَبِيرِ بِنَا بِهِ

هَلْ تَسْمَعُونَ ؟ دَعُوهُ نَسْرًا دَمِيَا

بَيْنَ الصُّخُورِ يَغِيبُ عَنْ أَحْبَابِهِ

خَلَّوْهُ تَحْتَ الشَّمْسِ تَحْضِنُ وَجْهَهُ

رِيحٌ مَطِيَّةٌ بِأَرْضِ شَبَابِهِ

وَعَلَى السَّهْلِ الصَّفْرِ رَجَعَ نَدَائِهِ

يَا آهًا بِالمَوْتِ لَسْتُ بِآبِهِ

خَذْنِي إِلَى بَيْتِي

أَرْحُ خَذْنِي عَلَى أَعْتَابِهِ

وَأَبُوسَ مَقْبِضِ بَابِهِ

خَذْنِي إِلَى كَرَمِ أُمُوتٍ مَلُوعَا

مَا لَمْ أَكُحَّلْ نَاطِرِي بِتَرَابِهِ

يَا مَنْ وَرَائِي لَا تَخُونُوا مَوْعِدِي

هَذِي شَرَايِينِي

خَذُوهَا وَانْسَجُوا مِنْهَا

بيارق نسلنا المتمرد

وسميح يطلب إلى الرفاق أن يدعوا الشهيد مكفناً بشيابه المضرجة
بالدماء، وأن يدعوه في السفح نسراً دامياً بين الصخور يغيب عن رفاقه،
ولا يواروا جثمانه، بل يتركوه في العراء تحت الشمس تعانق وجهه الرياح
الحملة بشذى أرض شبابه، ومن تحته السهول المحزونة يتردد فيها صدى
ندائه الحار: إني لا آبه بالموت، فقد مت كما أريد وفي المكان الذي
اخترت، وكل منى أن أودع بيني الوداع الأخير وأريح خدي على
أعتابه وأقبل مقبض بابه وأكحل ناظري بكرمه وترابه. وتجلجل منه صيحة:
يا من ورأى من الرفاق وفقوا بالوعود والعهود، وهذه شراييني خذوها
وانسجوا منها بيارق أبنائنا حتى ينشأوا نائرين، بل حتى يصبحوا فدائيين
يسحقون الصهيونيين سحقاً، بل حتى يصبحوا أدوات دموية تدمرهم
تدميراً، وتفترق فلوطهم من جحيم الموت فراراً رهيباً.

وبنفس هذه الروح المتمردة العاتية ينسج محمود درويش منظوماته
التي كتبها بعد النكسة، مجسداً فيها الصمود للعدو والثبات
في المعركة حتى يوم النصر القريب، مردداً أن الهزيمة جرح يضاف
إلى الجرح القديم، جرح لا بد أن يعقبه الانتقام، وأن الهزيمة لا تعني
الاستسلام، بل تعني النفوذ من لحيها ألسنة نارٍ تندلع على رؤوس العدو
وتحطمها حطماً، وإنه ليصبح من أعماقه:

خسرت حلماً جميلاً

خسرت لسع الزنايق

وكان ليلى طويلاً

على سياج الحدائق

وما خسرت السبيلاً

فكل ما في النكسة أنه خسر حلاً بالقضاء على إسرائيل في سنة ١٩٦٧ قضاء مبرماً ، وخسر ما كان ينبغي أن يتزل بالصهيونيين من بروق الموت وصواعقه ، وكان قد طال الظلام الداجي الذي مدّه على الوطن الحبيب عشرين عاماً ، وهو ينتظر بفارغ الصبر ساعة النصر الحاسم ، ولكن ذلك كله لم يكسر نفسه فقد بقيت لها قوتها وصلابتها ، إذ السبيل لتحقيق الحلم الرائع لا يزال مفتوحاً . وقد اشتعلت في نفوس أبناء عرب فلسطين ، بل في نفوس العرب جميعاً حفدة الأبطال الذين فتحوا العالم وأخضعوه لسلطانهم ، نار الغضب ، وإن هيبها ليتعالى على أيدي الفدائيين وفي كل بلد عربي . وما ارتفاع ألوية الثورة التحررية في السودان وليبيا الشقيقين وتصفية القواعد الأجنبية في العظم وهوليس إلا إرهاب عظيم بالنصر ، وإن بشائره لتدق من الخليج إلى المحيط .

الفهرس

صفحة	مقدمة
٧- ٥	(١) معنى البطولة
١٦- ٩	(٢) فى الجاهلية
٣١- ١٧	(٣) فى الإسلام
٥٥- ٣٢	(٤) فى الحروب مع الروم
٨٢- ٥٦	(٥) فى الحروب الصليبية والمغولية
١٠٨- ٨٣	(٦) فى معارك التحرير
١٥٩- ١٠٩	

١٩٨٤ / ٣١٢٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٨٦٠-٤	الترقيم الدولى

١ / ٨٣ / ١٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)